

(12) بلوغ الذروة

ربما يحار الداعية اليوم حين ينظر يمينًا في الكتب فيرى أوصاف القادة التي ذكرها الفقهاء والحكماء والأدباء ترسم صورة لها جمال فائق وبهاء، وفي خطوطها ما يبنى عن تكامل ومنازل استثنائية إذا قاس نفسه بها ازدرى ما هو عليه، ثم ينظر يسارًا يتمعن في الواقع ليرى أكثر رجال الطبقة القيادية أهل فضل وإيمان وشجاعة وبذل وذكاء، ولكنهم دون الصورة النموذجية المثالية الرفيعة التي انطبعت في ذهنه عبر الوصف النظري، فيبهت، ويأخذه ذهول، إلا أن التأول منه قريب، وسرعان ما يقنع نفسه بأن المكانة التي يفترضها الشرعيون والفلاسفة والشعراء الرثون والمؤرخون للقيادي إنما يتعمدون جعلها رمزًا تربويًا عاليًا من أجل تحفيز الهام لارتقاء وصعود، لعله يصل النصف أو الثلث، والثلث كثير، فيكون ضرب المجازيات وسيلة لاستنزاف طاقة موفق في نيته يرنو بعيدًا، لكنه مأسور إلى طبيعته البشرية والمقادير المحدودة التي أودعها الله فيها من القابليات ودرجاتها الإدراك والتحمل.

لكن الحيرة الكبرى ليست هذه، وإنما هي التي تستولى على الداعية حين يطالع مسيرة الدعوة في الحقبة الأخيرة خلال أكثر من نصف قرن، منذ الومضات الأولى حتى الامتداد العالمى، فيكتشف أن الدعوة بحمد الله حافظت على وتيرة التقدم وحشد الإنجازات، وما زالت تنتصر لقضايا الأمة، وتنشر العلم والمعروف والأخلاق، وتزداد خيرًا، وتضخم الصغير الضامر، وتؤجج معنى الجهاد، وتمضى واثقة في الدرب الحضارى الشمولى، رغم ما هنالك من نزول مستوى الجمهرة القيادية عن الصورة المثالية المفترضة التي انطبعت في أعماقه لمعنى القيادي.

فكيف يحدث هذا؟ وكيف نفهم الأمر على وجهه الصحيح؟

هنا يتدخل التحليل الموزون منقذًا لكل حائر، ومؤيدًا لكل فائر، فالبركة الربانية التي تنزل على كل ذى نقية تأويل قريب أيضًا، أقرب من ذاك الأول، ولكن الله يجعل لكل شىء سببًا مرئيًا محسوسًا معقولًا، وما هو بغريب من منطق جريان حركة الحياة.

* التحليل المتأنى يرينا أن هذه البركة الهابطة من السماء تتقمص أحد وجوه الأداء الدعوى الجماعى من غير أن يشعر الدعاة أنفسهم، ربما إلا بعد حين طويل من المراقبة ورصد الظواهر والتأمل فيما كان بين كل مقدمة ونتيجة.

إن تجزىء الواقع الدعوى إلى أجزاء صغيرة، إذ هو كتلة مخلوطة مندججة، يمنحنا إمكانية إعادة تركيب الشظايا المتماثلة، فتنفصل المعانى وتستقل، فيكون من الممكن تمييزها ورؤيتها مستقلة وفهمها.

وعبر محاولاتى فى التفكيك والتركيب: هدانى ربى إلى الانتباه إلى الإشكال بحمد الله، مما يتيح لنا المزيد من الإتقان فى استعمال بعض الظواهر الحيوية والدعوية التى يتيح التركيب فهمها واستعمالها استعمالاً أوسع، وجعلها موردًا من موارد الإنتاج والتقدم والإيجابية، بل موردًا ثريًا جدًا يقفز بخطط التطوير قفزات جريئة نحو الأمام، وسيكون فى ذلك — بعد تقرير القضية البرهان الجلى على حاجة الأمر الدعوى إلى الفكر الدعوى حاجة حتمية قبلية، قبل التوغل، فعبر الفكر يمكن فهم العضلات، وإدراك الطريق الأقرب إلى تحقيق الغايات، ولن يعمر فكر من غير تفريغ داعية مخضرم طال تجربته، تفريغه من رهق التنفيذ الإدارى اليومى وتدبيرات المعاش، ليصفو له الوقت، ليفكر نيابة عن رهطه، فيرجع لهم بالرأى والفقه والتخطيط والتعليل وسر حركة الحياة.

إن العملية القيادية فى المحيط الجماعى الدعوى لها مجريان يكشف عنها التدبر الهادئ لطريقة ولادة كل خير أو إنجاز أو عمل كبير وإحلاله فى عالم الواقع والتأثير:

* **المجرى الأول:** يكون عبر تجزؤ الوصف النموذجى للقيادى وحلول أنواع من أجزائه فى المجموع، وذلك قَدَر ربانى محض جعله الله تعالى سببًا لظهور البركة، وتأتى الحقيقة التنسيقية المتولدة من وجود كيان دعوى لترجمه إلى «مقدار» من التأثير، يجتمع إلى مقادير أخرى، فيكون زخمًا يحرك الحياة. وهذه إحدى منح العمل الدعوى الجماعى التى لا يغفل عنها الفرديون فقط، بل حتى الدعاة يلبثون فى رفل من عطائها دهرًا، ولربما لا يعرفون دقائق عملية تسلسل ورودها وظهور الأثر الدعوى الإيجابى وكيفيته من أجل السيطرة عليه والتحكم ومضاعفة المحاسن الناتجة منه، وكلنا نلهج بأن من ميزات العمل الجماعى التنسيق،

ولكن نجهل كيفية ولادة هذا التنسيق ومراحله وصوره العديدة، وهو جهل ضار، أقل سلبياته تعطيله للطاقت وهدره بعض «أكمام» طاقت الصفات القيادية التى تيسرها طرائق الفيزياء الدعوية كمثلى تيسير فيزياء الكم حصول تأثيرات الأشعة والموجات الضوئية والكهربائية، سواء بسواء، لأننا نعيش وإياها تحت سقف واحد اسمه «الحياة» التى تخضع لقوانين واحدة وظواهر متظاهرة متكاملة، وكما صرخ «ماكس بلانك» الصرخة الثانية فى التاريخ بعد صرخة أرخميدس الأولى وصدع فى برلين أن قد وَجَدَها: أن الطاقة ليست: سيلاً متصلاً ولكنها أكمام متقطعة متتالية: يؤذن للداعية الباحث عن «فقه الدعوة» أن يصرخ أن قد وجد «معادلة التأثيرات القيادية»، وأنها معادلة بلانك نفسها تماماً، وأن الطاقة الدعوية القيادية إنما هى أكمام موزعة متكاملة، وأن معادلة قياسها هى:

$$\text{عدد أفراد الجماعة الدعوية} \times (6.63 \times 10^{+6}) = \text{التأثير القيادى الموسمى.}$$

فرقها عن معادلة بلانك أن السالب أصبح موجباً، فقط، مع التضخيم؛ لأن القياس هنا ليس عبر ثانية، بل عبر موسم.

وذلك أن البحث الدقيق يرينا أن تلك الصورة المتألقة للقيادى، التى رسمها الفقهاء والفلاسفة: لم يخلق الله منها إلا فراداً قلائل فى الأمة الواسعة كل قرن، لا طاقة لهم أن يرفثوا الفتق، ولكن الله تعالى بحكمته وزع الأوصاف القيادية على عشرات ألوف فى الأمة، فإنك لا تجد النقى الشجاع المتند الكريم الصبور الحليم الذكى الفقيه البليغ المثابر الثائر السريع النهضة الحاضر البديهة إلا قليلاً، لكنك تجد ألوف الأتقياء، وألوف الشجائن الكرماء، وألوف الأذكياء، وألوف الفقهاء، ولا يعدو أحدهم قدره المختصر الناقص، فيقرن بين التقوى وضحالة العلم، وبين الشجاعة وعى اللسان إذا تكلم، وبين الذكاء والغضب، والمثابرة والتهور.

* هنا يأتى أسلوب تركيب الأجزاء الصغيرة المتناثرة والشظايا المبعثرة، كفرع عملى للأداء الدعوى الجامع، فينضم ألف جزء من الشجاعة عبر الخطة لتكوين «كتلة شجاعة» تحتل حيز الشجاعة فى الوصف النموذجى للقيادة، وتملؤه إلى حد الكفاية وزيادة. وينضم ألف جزء من الذكاء عبر المراكز واللجان لتكوين «كتلة ذكاء» تحتل حيز الذكاء فى الوصف النموذجى

للقيادة، بل وتتحول إلى «عبقرية» كاسحة للعقول الفردية التي تعاكسها، وكذا الصفات الأخرى، وبهذا الانضمام والاجتماع تتكون «القيادة الجماعية» التي تتمثل فيها الصفات القيادية النموذجية جميعاً إذا أحسن مهندس التركيب تصاميمه وجعل طرق الالتقاء سالكة.

وكنا لا ننتبه إلى هذه الإمكانية المتاحة لتحشيد القابليات المتماثلة التخصصية في تيار واحد عاصف لأن بقية من المفاهيم الفردية كانت عالقة بنا، جعلتنا ننتظر إنجازاً عظيماً من الفرد، ونحلم بالقائد الفذ الذي جمع المناقب الفردية، البارع في كل فن، المعوض بشخصه الوحيد عن نقص الجماهرة، حتى تحوّل هذا الوهم إلى مرض نفسى يوسوس لنا بالإحباط، إذ وجود هذا البطل الشمولى عزيز إن لم يكن أقرب إلى المستحيل، أو نخرج إلى خداع أنفسنا، فنزعم أن فلاناً هو الذى استوعب وجمع وأحصى الأخلاق والمهارات، ولعله هو نفسه أعرف بقدر نفسه وقصوره عن وصف المعجبين به، فيرفض الوهم، فيزداد الأتباع تعلقاً بظنونه يتواضع، ويكرر النفى، ويرفضون، حتى ييأس فيستسلم ويبدأ يعتقد ما يعتقدونه من الإحاطة ومقاربة العصمة، وما يدرى أنهم بصنيعهم إنما يملئون فراغاً نفسياً يستبد بهم من حيث لا يشعرون، ويرون في تخيل القائد الملهم تعويضاً عاطفياً عن حالة العجز، فيدورون في لا عقلانية، تُسلمهم إلى لا واقعية، لأن آلة القياس ومعيار الفحص وقواعد فهم الحال وموازن إدراك الموقع من مسيرة الحياة كلها خطأ في خطأ، وتعمها فوضى، ولو حللوا مثل تحليلنا لعرفوا أن التعويل في حركة الحياة كما يكون على عاتق الأفذاذ القلائل أهل الكمال: يكون عبر تركيب شظايا الخير أيضاً وربطها وتكتيلها وإطلاقها، فتكون جارفة لما أمامها، فننعطف الحياة انعطافاتها الكبرى، فإذا كان انتظار الفلته الخيرية القدرية صعباً، فإن التكتيل الألفى أسهل وأسلم وأبقى وأمضى، وبذلك تعود القضية القيادية قضية «منهجية» قبل أن تكون «تفتيشاً عن عباقرة»، وقضية «فكر» قبل أن تكون مزاعم شاعر ومؤرخ، ثم هى هندسة وتخطيط وتقاسم أدوار، وتبرأ أن تكون رؤى مُغرَم وإحالة اتكالى يأنف الانسحاب، فيدعى الحياء من أن يتقدم بين يدي كامل، ويخترع مثاله الأعلى ويوهم نفسه بالإذعان له، وما ثمّ شىء، والمخرج إنما يكون بإفاقة التوايين، وتوكل السائرين، وأن ينزل كل داعية إلى الساحة العملية الدعوية الإنتاجية مهما عابته أنواع النقص، يعرض ما يحسن، ويهب ما يملك، ليكون مفصلاً أو عتلة أو حتى مساهراً في الآلة الهادرة.

* وأثناء ذلك لن نزهد بداعية مهما بدا ساذجا، فإن حال مَنْ اكتشف المغزى الدعوى فبايع لن يُغلق على عجز تام، بل إن كان بطيء الفهم فاطر التعلم فقد يكون سريع النفرة جاداً في الجهاد، وإن كان قليل العبادة فلربما تلمس منه لمعة اجتهد، وهكذا سائر الصفات، وبإمكان «غرفة السيطرة التربوية» أن تشخص حالته وتكتشف مقادير العدل والعوج فيه، فترشحه لما هو له أهل، وتصبّ فيه خيراً، وتقوم بتجبير رجله العرجاء، يستوى مهرولا، ثم تقدمه هدية إلى «غرفة السيطرة الحيوية» لتعصره وتستنزف منه كل سيل الأكهام.

وما قلناه من أن الدعوة تتقدم في طريق الإنجاز بخطى واثقة، وأن ذلك يجيّر الداعية الذي رَصَد فصدمه غياب المثال الأعلى الشمولى: فيه دليل على أن الجيل الماضى من الدعاة والجيل الحاضر قد أدركا عطايا العمل الجماعى وأثر الأداء الدعوى في إبراز القيادة الجماعية، ولكننا نتحدث عن مستوى هذا الإدراك والوعى، وهل هو تام أو بالمستوى الكافى الذى يجد لكل الطاقات قنوات خيرية تجرى فيها.

هنا أنا أزعّم أن ذلك لم يكن كافيا، لا لضعف فى الهمم، بل لضعف فى فهم انسياب هذا التوزع القدرى للصفات فى مجموعة الدعاة كلها، والرزح تحت ثقل مفهوم القيادة الفردية، فلم يكن حشد التخصصات وافيًا، ولا إجراءات التكامل، وكنا ندع المبدع لقدره، يعرض نفسه إن استطاع أو ينسحب ويركن لخمول، وفراستى تدلنى إلى أن تحليل طريقة عمل القيادة الجماعية إذا شاع وآمن به الدعاة فإن أضعاف حجم الإنجازات السابقة مرشحة للظهور والحلول فى عالم الواقع فى السنوات العشرين القادمة إن شاء الله، وهى سنوات الحسم كما تفيد معالم التطور الدعوى.

* القَدْر يضمن كتلة إيجابية فى الجماعة كل يوم لكن يتبدل مُكْتَلُوها.

* **المجرى الثانى للعملية القيادية فى المحيط الجماعى:** استثمار اللحظات الرحمانية فى الداعية الواحد وانتظار تراكمها ليتكون منها رصيد يكفى لإحداث زخم مؤثر فى مسيرة الدعوة، ثم لاحقاً فى حركة الحياة.

وسبب هذه الظاهرة أن ساعات المؤمن ليست متساوية، وإنما هو يتأرجح بين رغبة وعزوف، ونشاط وكسل، والمربى العاجز عن إدراك هذه الحقيقة الخلقية يعتدى على نفسه

وعلى الدعوة فيجئ إلى تضعيف المتأرجح إذا قضى الله أن يأتيه ويربيه حين استيلاء قَدَر الكسل عليه، ولا يفتن إلى ضرورة الصبر على خطوه الوئيد الذى سيتسارع مع ورود الخير والنشاط وفق عملية التناوب التى لمهرة المربين خبرة بها، ولو هدى لصبر وسمع صدى بذله، ولكنه يستعجل ويخرج إلى ملل، مع أن العقيدة تقرر بوضوح أن الإيمان يزيد وينقص، والصحابة تقرر أن للقلوب إقبالاً وإدباراً، لكنه لا يتعمق في فهم مغزى هذا التقرير.

والمجتمع الدعوى حين تسوعه أثناء مراحل العمل المتقدمة يصير مجتمعاً ضخماً جداً ن قدره بعشرات ألوف المخضرمين والقدماء، مع أضعافهم من الجدد وأنصار الدعوة، حتى يكون المليون هو وحدة الإحصاء، فلربما ربع مليون أو نصف مليون أو المليون كاملاً وأربى، فتكون الومضات والنبضات والسكون والجوامد والسككات في هذا المجتمع الضخم مختلطة، إذ الشيطان لا يزور الجميع في وقت واحد، وإنما يغزو، فغافل ومتنبه، ولذلك تضمن الصفة الجماعية وجود ثلة يقظة متحفزة فاعلة في كل وقت، ليست ثابتة الأشخاص، وإنما هم يتبدلون، لكن ضمن هذا المجتمع الضخم، فلن تُغلق الجماعة وأنصارها على تفريط وتضييع وخمود، بل في لحظة القياس الواحدة هناك شطر من مجموعة الدعاة دائب في العمل والإنتاج، لكن الأشخاص الذين يمثلونه يتبدلون، كمثّل تبدل أشخاص الخفارات في الجداول الإدارية لتنفيذ الأعمال الاستثنائية في غير وقتها الطبيعي، وبين التقدم والتأخر منازل، وأصحاب الدأب سائر ومهرول وراكض ومخلق ذو أجنحة مثني وثلاث ورباع، ثم أصحاب العزوف فاتر وبطىء وواقف ومسرف يتراجع ومَن هوى، والمهم أن لا تفزعنا أخبار التسيب، لأن لنا في أخبار الباذلين سلوة، والشطر المعافى القلب من كتلة الجماعة، المعروف بوصفه في كل حين لا بأساء أفراد: هو الذى يجب أن تلحظه غرفة السيطرة القيادية وتسعى لتوظيف نبضاته ضمن البدائل التخطيطية الكبيرة، وبمثل هذا كان تطور الدعوة دائماً كأسلوب ثان مقترن بأسلوب تركيب الشطايا، وبمثل هذا سيكون استمرار تقدمها المستقبلى، والكل تحت المشيئة الربانية وفي خضوع للقدر الخيرى الذى ينتخب أصفياه، ولقدر الشر الذى يستزل ضحاياه، وكل ميسر لما خلق له، وقد رُفعت الأقلام وجُفّت الصحف، وقد تبدو بعض ملامح الحكمة في التوزع إذا كان المؤمن يقيس وفق موازين الشرع، ثم قد تبدو له بعض الطرقات التى تسلكها الحياة عند تحركها وإن كان هناك ضباب، ولكن الله جعل الإتقان سبباً للإجزال،

وغاية هذه التحليلات إقناع الدعاة بوجود تطور دعوى ينتظرهم إذا أنقنوا التحرك المنهجى الواعى هو أضعاف ما يحصل من السير العفوى.

البؤرة القيادية الجامعة لمتناثر الإيجاب

والذى يتحصل من هذه التحليلات أن القادة ثلاثة:

* فقائد فرد بلا أعوان وأتباع، وإنما هو يعمل مستقلاً لوحده، يحركه الإخلاص، وتستفزه مصالح الأمة، فيحاول تقديم ما يستطيع فى صورة أمر بمعروف، ووعظ وحث، وكتابة وتأليف وأداء إعلامى، وهذا هو أشبه أن يكون من صنّاع الحياة من أن يُسمى قائداً، وفى حالة تتضح أهمية الصفات القيادية العالية فى تقرير نجاحه فى إحداث تأثير فى جمهور المسلمين أو محدودية الأثر، فلا شك أن عمق إيمانه وقوة شخصيته ووفور علمه وبلاغة لسانه وقلمه ورصانة منطقته وحِدّة ذكائه: كل ذلك يحدّد درجة تأثيره، إذا ساعدته أسباب أخرى، من الصحة، والفراغ، والمال، والأمن.

* وقائد دعوى، وهو فى الصفات مثل الأول، لكنه يعمل مع عصبة من أمثاله، فتزيده المحاورة والمناظرة نضجاً ووعياً، ويزيده شعور الانتماء الجماعى ثقة، فيكون أصبر وأشجع، ثم هو والعصبة الأقران يمارسون الفذلكات التنظيمية والتخطيطية لتجميع وتركيب الشظايا الإحسانية الإتقانية المتوزعة فى الأتباع الكثيرين، فتتكون من ذلك عملية قيادية جماعية واسعة عريضة، توفر جميع أنواع الصفات الإيجابية، من إيمان وشجاعة وعلم ووعى، بكميات ضخمة تتحول إلى تيار جارف للأضداد، فتكون تحولات كبرى فى مسيرة الحياة فى القطر الذى تعمل فيه، كمثل ما انتقت عصبة العلماء اليورانيوم الخصب، واستوعبته فى ثلاث وعشرين من الأوعية الصغيرة، ثم دمجها فى لحظة الحاجة، فتحقق الوزن الحرج لليورانيوم الخصب، فحصل الانفجار النووى الذاتى ودمرت ناكازاكى وأزال كبرياء اليابان، وأنا أقدر مثل هؤلاء القياديين الذين تتكون منهم البؤرة القيادية المتمكنة من جمع الشظايا المتفرقة وإزالة كبرياء مانعى الحرية بمائة قيادى فى البلد المتوسط ذى العشرين مليوناً، وبمائتين فى بلد كبير ذى ستين مليوناً، ووجودهم ضرورى، والقول بإمكان تحصيل جهد قيادى عام من تجميع الشظايا القيادية لا يلغى الحاجة هؤلاء؛ لأنهم هم أصل هذه العملية التركيبية، وهم مهندسوها.

* وقائد رجل دولة، يماثل قادة الدعوة فيما يفعلون من حشد الطاقات الصغيرة وتوظيفها في عملية قيادية جماعية، إلا أن الفرق يكمن في أن قادة الدعوة يستعينون بالترغيب، لأن الأتباع إنما اتبعوا عن رضا وطوعية، ورجال الدولة يعينهم التهيب من بعد الترغيب، والقسر والإلزام والإجبار الذي يحصل إلى درجة البطش، وهنا تكمن نقطة الضعف الكبرى التي يمكن أن تستثمرها الجماعات المعارضة، إذ إن أصحاب الكفايات يخضعون زمنًا، ثم يفتشون عن طريق للتملص والنجاة، وكان صدام حسين مثلاً يأمر بإعدام الهارب من جبهة الحرب الإيرانية أمام داره ويجبر أمه وأخواته وخالاته وعماته أن يزغردن لحظة قتله، وكان نسيه حسين كامل يضرب رؤساء المهندسين ويجعلهم مثل الكرة بين رجله إذا تأخر أحدهم خمس دقائق عن وقت بدء العمل في معامل التصنيع العسكري، وكان نادر شاه قبل أكثر من قرنين يجعل عوائل جنده رهائن يبيع أعراضهن إذا هرب الجندي، في عشرات الأساليب التي يتكرها من يتسلط، وذلك دأبهم منذ التاريخ القديم، والقرآن الكريم يتحدث عن تقتيل فرعون لأولاد بني إسرائيل، وإنما نجا موسى عليه السلام بمعجزة، إلا المتسلط الأقرب إلى العدل مع قومه، فإنه يستخدم الترغيب والتهيب معاً في تكوين عملية قيادية جماعية، وهو ما حدث في الغرب في القرنين الأخيرين ودفع المسيرة الحضارية وحكر نتائجها لنفسه دون أمم الأرض، فأوصله إلى مرحلة العولمة التي هي في حقيقتها: الانفراد بالقيادة، ولولا أن الدعاة يعلمون أن الظلم مصرعه وخيم لوصلوا إلى يأس، لكنهم يفهمون من مجمل موازين الإيمان والسنن الإلهية الكونية أن ظلم الحاكم لقومه أو ظلمه لغير قومه سواء، وعما قريب تفتق الفتوق على الظلم الاحتكاري الغربي وتنفس أمة الإسلام، لابتناء العملية القيادية الدعوية على الرغيب المحض دون ظلم مبدؤه التهيب، والأمة في حالة فراغ قيادي، وكفر بالنكرات، والقيادة الدعوية هي التي ستملأ الفراغ، وفقاً لفيزياء أرخيدس العتيقة الأولى الإزاحية، دون حاجة لشهادة من بلانك وفيزياء الكم وأخبار مختبرات القرن الحادي والعشرين.

في غير الدعاة طاقات شتى يمكن أن توظفها الخطة الدعوية

هذه الظاهرة في تركيب شظايا الصفات القيادية عبر العمل الجماعي تعمل كذلك في المحيط الاجتماعي العام الأوسع الذي لا يربط أفراد التزام مع الدعاة، وليس في المجتمع

الدعوى الخاص فقط، وبذلك يمكن توظيف طاقات أهل النقص والعيوب أيضًا، ومن يتألم منهم القائد الفردى وينكر حالهم، لا طاقات الدعاة فقط.

* فالوعاظ والكاتبون يكثرون من ذم الناس، ويرون تبدل الزمان، وذلك دأبهم جيلاً بعد جيل، منذ صدر الإسلام، فيقول أحدهم:

ذَهَبَ الرِّجَالُ الْمُقْتَدَى بِفَعَالِهِمُ وَالْمُنْكَرُونَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٌ

وبقيت في خَلْفٍ يَزِينُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لِيُدْفَعَ مَعُورٌ عَنْ مَعُورٍ

وقال آخر: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً. اضرب بطرفك حيث شئت: هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقراً، وغنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً، أو متمرداً كان بسمعه عن سماع المواعظ وقرأ؟

وهذا من القول الصادق، وهكذا هي الحياة، وهذا هو المجتمع، لكن الطريقة الدعوية في التعامل مع هذه الحقائق المؤلمة تختلف جداً عن طريقة الفردانيين مهما صلحوا.

* تختلف أولاً في الوصف، فما ذكروه إنما هو ظاهرة عامة يتلبس بها أكثر الناس، لكن الاستقراء الدعوى يأبى أن يقول: إن جميع الناس قد تلبسوا بهذه الأسواء، وإنما هناك بقية ذات بقية، هم الذين عنتهم الآية حين يقول القرآن: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا

بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود:116]، وأول هؤلاء: المكابدون الذين زفروا هذه الزفرات واستفزهم الجحود والجهل، وعلى هذه القلة التعويل في الإصلاح إذا اجتمعت وانتظمت ووضعت خطة الاستدراك واستقبلت الحقيقة المرة استقبلاً إيجابياً ينطلق من عزم مُبْرَمٍ على احتلال الموقع القيادي في المجتمع، ومن موطن الفوقية يمكنهم بث التربية والترغيب، مع مقدرة على النهي والترهيب عند الحاجة، بعدل وبمقدار، فتكون مقاربة.

* ثم تختلف ثانية في المقدرة الدعوية على التعامل مع هؤلاء الناقصين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب أحد أنواع النقص هذه، وهذا مؤسس على رأى وفكرٍ دعوى أسبق منه يقوده، مفاده الإذعان لهذه الحقيقة التي استفرت الصالحين: أنها شرٌّ ملازم وظاهرة في الحياة

لا يؤذن لأحد أن يكون عنها بمعزل، فأحلام المدينة الفاضلة الفلسفية وهم، وأكثر المجتمع يزرح تحت نوع من أنواع الظلم والسلب والكفران، وإنما التعويل على «فن الصفوة المؤمنة» في تحصيل جزء خيري من الناقص في ساعة من ساعاته ينتظرونها في شكل أريحية تغمره يعرفون بالفرداسة متى تعترية، فيوافونه حين ورودها، فيتزعون منه ما يأباه في الساعات الأخرى، أو يدغدغون عواطفه فيصلون إلى مرادهم منه، ثم يعطونه مهلة أخرى طويلة، ثم يعاودون، أو يفهمون إملاء الظروف والتحديات الكبيرة على النفوس، فيتقربون من مترف أيقظته المواجهات الحاسمة، فيستخلصون منه مشاركة عما قريب ستقطع إذا بردت المنافسات، فيجمعون ما يأتي من هذا وهذا وهذا، التي لعلها أرقام مليونية، فتكون زحماً مؤثراً في الحياة تمكنت الحظوة من جمعه وتوجيهه كتيارٍ فاعل، وربما أتت هذه المشاركات في صورة عمل شجاع جهادي، أو تبرع بهال، أو كتابة مقالات صحفية تدافع عنّا، في أشكال أخرى كثيرة، أدناها: منح صوته الانتخابي لنا عند الاقتراع، أو الشفاعة لداعية، أو رفع ظلم، أو إهداء سر، وكل هذه الأفعال الخيرية ممكنة من فاسق وجاحد وبخيل وغافل، لا على سبيل التخلق الدائم، وإنما على سبيل الفلطة الموسمية عند استيقاظ قلبه من غفلة مسطرة هي الغالبة عليه، ولكن الحنين إلى الفطرة يجعل انتباهته ممكنة، وإن كانت نادرة، والفردى المتألم الذي قال الشعر الأنف لن يعدو قدره، وما هو بمستطيع أن ينتفع من إفاقات السادرين، وكذا أمثاله، لكن الفن الدعوى عبر التخطيط الحسن يمكنه ذلك، فيجتمع الخير الصغير إلى مثله، ثم إلى أمثال كثيرة له، فيكون خيراً كبيراً، ولن تستنكف الطريقة الدعوية من ذلك؛ لأنها تدرك أنها مجبرة على أن تتعامل مع حقيقة حيوية آتتها: أن أغلب الناس صرعهام نوع من السوء أو أكثر، ثم يجمعون معها التعامل مع حقيقة حيوية أخرى مفادها: أن الناس قائد ومقود، وأن الدعاة عبر احتلال المركز القيادي يمكنهم تركيب شظايا الخير في المجتمع العام أيضاً، وحشدها في تيار واحد، وهم في عملهم هذا كأنهم يستثمرون العطاء الرباني المذكور في قول أبي الدرداء **رحمته عليه**: «تعرضوا لنفحات رحمة الله؛ فإن لله نفحات يصيب بها من يشاء من عباده» وذلك لأن الفعل الحسن الذي يبيده أى مسلم إنما هو انعكاس لهذه النفحة الربانية في ساعة من الساعات الرحمانية، ولسنا ندرى على وجه التعيين من هو السعيد الذي تصيبه النفحة فيفعل خيراً، لكن هي موجودة في كل ساعة، والفن الدعوى يكلف الداعية أن يطوف

الصفوف وزوايا المجتمع يبحث عنها ويقطف أزهار من حلت فيهم النفحات كما يخرج العطار أيام الربيع يجمع أزهار البابونج الصفراء ليسقى نقيعها من بعد إلى لاهث فيتنفس، أو كما يجمع الأزهار الزرقاء في بوادي خُراسان ليسقى ماءها إلى مهموم حزين فيسرى عنه وينطلق مبتسماً من بعد عبوس.

*** وقريب من مغزى هذه المعادلة قول الشاعر:**

الناس إخوان، وشئى في الشيم

فهم يستوون في الخلقة الإنسانية، وبينهم قاسم مشترك حتى في الأخلاق، من حياء ورحمة مثلاً، واحترام الكبير، ونجدة المظلوم عند الاستطاعة، لكنها في المقادير الدنيا من هذه الأخلاق، وتكاد أن تتلاشى عند بعضهم، وأما المقادير العظمى من هذه الأخلاق وغيرها فإنها تتوفر في معظمهم، ولكن بصورة مقصورة، فلكل فرد خلق واحد يحل فيه بمقدار كبير، وبه يوصف ويكون له جنسية وشهرة، وأما بقية الأخلاق فهي ضامرة فيه، إلا من رحم ربك، فيقال: فلان كريم، وفلان حليم، وفلان حريص على التعلم، وأما الذين يجمعون صفات عديدة خيرية في آن واحد فعددهم قليل.

وفي شعر البحترى يمدح صاحبه أن:

خِصال النبَل في أهل المعالي مفرقةً وأنت لها جِماع

والشاهد فيه أنه يلتقي مع ملاحظتنا ويؤيد أن «خِصال النبَل في أهل المعالي مفرقة» موزعة، ومعنى ذلك أن اليد الخبيرة والخطة الماهرة تستطيع أن تجمعها وتجنّبها كما يجنى البستاني الثمر ويتم التعبئة ويتاجر به، فالخطة الدعوية يمكنها إنتاج أعداد كبيرة من هذه الوحدات الأخلاقية المجمعة المعبأة في عبوة قياسية نموذجية، فتكون كأنها نسخ كثيرة من هذا النبيل ممدوح البحترى، وبهم تصول الدعوة صولتها التفوقية.

منهجية الأداء القيادي تتيح توجيه المشروع الحضاري

ومثلما ينتظم الأداء الاقتصادي في الحياة البشرية عبر مجموعة من الأثمان والأوزان تحدد مراتب الأشياء وتمنح قيمة نسبية لكل جهد أو خدمة أو معدن مستخرج أو مادة خام تلتقط، ومن ثم قيمة لكل منتج هو حاصل الجمع بينهما، وإرجاع كل ذلك إلى قيمة الذهب كمحور

تدور عليه التقويمات: فكذلك العمل الفكرى السياسى الاجتماعى: إنما ينتظم عبر وضوح أثمان مفرداته وأدوات تشكيله، وتحديد مراتب الجهود والخدمات، وترتيب جدول «النظام القيمى» لأنواع الأداء فيه، والشأن الجامع لهذه الظواهر أنها تتكامل مع العلم التطبيقى ومع الأدب والرصد التاريخى وبقية العلوم الإنسانية، ومع الفن، لتكوين أداء أوسع وأشمل: هو الأداء الحضارى، الذى تحتاج كل أجزائه إلى هذه الأنظمة القيمية، من أجل أن يسترسل مستمرًا، فإن أصاب التقويم بعض خلل وفوضى، بتصغير الكبير، وتكبير الصغير - اضطرب الأداء، ونقص بمقدار المفارقة والجنوح.

هذه المقدمة ضرورية لفهم مكانة «القيادة» فى المشروع الحضارى الإسلامى المعاصر، وقيمتها وبيان أهمية دورها، وتأثيرها فى الأداء الدعوى الذى يقود بمجمله هذا المشروع الحضارى، فى عملية قيادية مركبة، بؤرتها أولئك المائة فى البلد المتوسط والمائتين فى البلد الكبير. بمعنى أن العمل الدعوى يقود المشروع الحضارى الإسلامى عبر جميع أنواع الأداء، مثل الأداء الفكرى والفقهى الاجتهادى، والأداء العلمى العام، والأداء السياسى والاقتصادى والاجتماعى والإعلامى، وإحياء عوالم المعانى بالأدب، وترويج النظر الجمالى بالفن، بوسائل التخصص والجماعية والأنماط المؤسسية، ثم يتقدم الأداء القيادى من بين كل ذلك ليقود بدوره هذا العمل الدعوى، طبقًا يركبه الأداء عن طبق، فى تداخل وتظاهر، بهما تكون «القيادة» المحور الثانى بعد محور «مجموعة الأحكام والموازن الشرعية والفكر الاجتهادى المستند إليهما» فى عملية الأداء، وهذه المحورية تمنح القيادة ولا شك أهمية بالغة وقيمة استثنائية كبيرة فى سلم القيم، تستوجب بالتالى أنواعا من الاحتفاء بها، والإعانة لها، وتطويرها، وتوفير احتياجاتها، ورصد حصة من الجهود لتحقيق وجودها بمقدار مناسب، مع تقنين حقوقها وواجباتها بما يضمن الوضوح فى الأداء القيادى، والاستمرارية، وإخراجها من أن تكون آنية، أو عفوية، أو مشتبهة غامضة، إلى أن تكون مُحكمة هادفة دائمة.

تكوين داعية واحد إنما تترجمه عملية جماعية ذات ألف تأثير

ولئن كانت الثوابت الفكرية فى الدعوة تمثل شطر الضمانة فى عدم الانحراف، واللبث الدائم على الخط، فإن «ثبات» زمرة القادة المائة أو المائتين على الخط، وإبداء الشمم والأنفة إزاء المغريات ودواعى اللين، والصلابة فى اعتقاد ثوابت الفكر: يمثل الشطر الثانى فى

الضمانة، وهو الذى يمنح السير الدعوى استقامته، واستقلالته عن الأغيار، والانتصاب فى عرصات الحياة كتلة متميزة يرصدها الناظرون والمتعاملون بسهولة، فيؤمها المؤمن آنذاك، والتائب، والمستدرک، ومن جرب الأغيار فزهّد وانفضح له عوار كل كتلة جاهلية على الساحة، وهذا يعنى أن العملية التجميعية تستند إلى هذا «الشخص القيادى المميز» مثلما تستند إلى البشارة والندارة و«الاتصال الفردى» الذى يقوم به الداعية فى حركته اليومية، مثلما تستند أيضًا إلى المساندة الإعلامية والنتاج الفكرى والآلة الدعوية التى يمسكها الداعية بيده ويقدمها إلى المدعو، من كتاب وصحيفة وشريط، وبذلك ينهار الزعم الذى زعمه الافتراض الواهم بأن نشر الدعوة يمكن أن يكون عبر الاتصال والواجب الفردى فقط، وهو افتراض لا يشهد له تحليل العملية الدعوية وكيف تتم عبر تكامل مكوناتها، وكانت له جناية على المصلحة الدعوية، فقد عطّل التجميع الواسع، وعطل الإيجابيات التربوية الكثيرة المنبثقة تلقائيا من حالة النجاح فى رؤية الدعاة أنفسهم يزدادون، وأول تلك الإيجابيات: الثقة بالنفس، والاعتداد، وتأسيس الأمل، وارتقاب الفرج. وتنتج من حالة الجمود الناحية من العدد ولا بد أسوء مقابلة. أضرها: اتهام النفس بالعجز، والانحدار فى درك التشاؤم، ووساوس من ألوان الإحباط، فما يكاد أحد من أنشط الدعاة أن ينجح فى كسب فرد جديد يحوله من سائب إلى ملتزم، لانقطاع متوالية المؤثرات المنتجة لمحفزات كثيرة هى التى تدعو ذلك السائب إلى التعلق بمن يمنحه إياها، وبذلك لا يقتصر هذا الافتراض الواهم على تعطيل التجميع وإنما يؤدى أيضًا إلى تدمير نفسى تدريجى يدبّ بخفاء يعطل التطلعات التى اكتسبها الدعاة القدماء، فيصيبهم خدر، وتثاقل إلى الأرض، وتعويل على معجزة غيبية ترفع عنهم رهق البذل والصبر، وتظهر موجة من رؤى يطلبون تفسيرها عند الصالحين أو من كتاب ابن سيرين، ولربما استبدت بأحد الدعاة ذكرى الأيام الطيبات فيجد فى ساعة خفة ميلاً إلى انتفاضة على واقعه، لكنه سرعان ما يكتشف أنه كالأسير الذى أوثقته الحبال والقيود، لن تزيد حركته عن تملل، ويكون أعجز عن خاطرة ثانية تطرقه، حتى يستسلم عند الثالثة أو رابعة ربها، كأنه طير ذبيح تتناقص رجفته حتى يسكن، فيعود الداعية محبوساً فى جلده، يرى بعينه، ولا تسعى قدمه أو تبطش يده، فتتوالى مجموعة أسوء ثانية تغزوه ولا يستطيع لها ردّاً ولا طرداً، بينما تضمحل هذه الظواهر السلبيه فى الأيام الطبيعية حين يكون التكامل بين

شخص القدوة والذخيرة الفكرية والأداة الإعلامية منتجاً لتجميع وازدياد، حتى الساذج والكسول والعاجز الذين لم ينجحوا في كسب جديد إنما تعزيمهم نشوة نفسية عبر فرحهم بالتوفيق الذي يجرى على أيادي غيرهم من الدعاة، لأن الدعوة ملك مشترك لا يحوج أحداً إلى إبداء حسد أو تفكير باستثثار، فما من جديد يضاف إلى الرهط إلا ويشعر الجميع بأخوتهم له وبازدياد الرصيد الجماعي، إذ كان انضمامه نتيجة اجتماع جهد من الجميع رغم انتساب الوافد إلى داعية واحد، ليس فقط في صورة فكر دونه أحد آخر أنتفع به الجديد، أو في انتصاب القيادة قدوة رمزية له، أو في بذل خدمات مؤسسية زادته قرباً، وإنما حتى في صورة دعاء من ذاك العاجز، أو تمويل من الآخر الكسول، أو تكثير سواد من الساذج لمنظر المجمع الدعوى قذف في قلب الجديد نسبة من الطمأنينة مهما كانت ضئيلة، وهذه التحليلات ما هي من الخيال، وإنما هي من الخبرة التجريبية التي يكتسبها الدعاة عبر الممارسة الطويلة وتقلبهم في يوميات العمل والقرب من العاملين في الساحات الجزئية فيتراكم رصد مسالك الدعاة في العمليات التبشيرية التجميعية لدى كل مراقب من التربويين والمخططين حتى يخرج الواحد منهم باستنتاج مماثل لهذا يستيقن معه أن كسب فرد جديد إنما هو عمل جماعي تعاضدت فيه جميع أنواع المؤثرات، لكن القائد إذا عزل نفسه عن مخالطة أتباعه في ساحاتهم الجزئية واعتمد الوكالة والرواية، فإنه يوشك أن ينسى هذه العوامل الجماعية في إنجاح الاتصال الفردي، فيزعم إمكان تحصيل نتيجة من الأداء الفردي ويغفل عما يظاھر، فيرهق أتباعه من أمرهم عُسراً، ويكون التعطيل، ثم الدمار النفسي، بما سوغ لنفسه من عزلة عن المجموع المنبث في الساحات العملية الجزئية، فما عاد يرى المراحل السبعين التي تمر بها عملية «ضم جديد» إلى صفوف الدعوة، والتي يؤثر في معظمها مجموع التنوع التخطيطي، وفنون وأساليب الأداء التنفيذي، ويكون «ثبات» القيادة من بعد «ثوابت الدعوة» من جملة المؤثرات الحاسمة في تحديد وجهة الجديد واستمراره وتضاعده أحاسسه، وكلما زاد الحضور القيادي في هذه العملية: زاد ولاء الجديد، واقترب أكثر في اطراد، حتى لتتحول العلاقة إلى نوع هيام بالقائد إذا كان متميزاً في معانيه، بليغاً في مبانيه، ثم إلى تعلق قلبي شديد بالقيادات الدعوية المتكاملة الأدوار، من إعجاب بشعراء الدعوة واتخاذ أبياتهم شعارات وحكم يرددها، ومن اعتقاد لاجتهادات مفكرى الدعوة في ربطهم بين الواقع المتجدد والموازين الشرعية، ومن اقتناع

بتحليلات سياسية يدلى بها قياديون آخرون، وارتداع عن غيٍّ وإبطاء عن المعصية تقذفه في قلبه تخويفات الدعاة الواعظين، وانتفاع بمقارنات تاريخية تكشف عنها بحوث المؤرخين، بحيث إن «الجديد ما بين انتباهته من رقدة الغافلين حتى استوائه ضمن الصف» يكون قد تعرّض ربما لألف دفعة تأثيرية قيادية بدرت من مائة داعية قيادية في بلده، من بين سياسى وأديب وفقه ومورخ وفنان وإعلامى، يتصدرهم القائد الأول بهيبته وسمعته وحُسن سمته ودله وهديه، والقابع منهم في زنانة ليس بأقل تأثيرًا وتخفيفًا عبر قيام قصته كدليل عملي على البذل والثبات، ونقل الملائكة لخبره إلى قلوب طاهرة، حتى الشهيد في قبره شريك في تربية كل جديد، بما ضرب من مثل على صدق انتساب القافلة المعاصرة لقافلة ربانية واحدة عتيقة تحدث عنها القرآن، وهذا المعنى القانونى لشهادة مسلم قتيل هو أحد المعانى التى يتضمنها اصطلاح «الشهيد» في العرف العقيدى الإيائى، فإنه في أحد مراميه: هو شهيد على وجود ظلم، وشهيد على أن ما معه هو الحق الذى ما زال يحمله منذ ألوف السنين ﴿رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:146] فيثبت بشهادته القضائية هذه «الأصالة» وعراقة الانتماء. وتقرن بهذه المؤثرات الألف على طول المدى ألوف ومضات أخرى مماثلة تأتى عبر الحدود من مجموعة القياديين في العالم لتؤثر في الجديد الثاوى في أى قرية، عبر كتاب أو خبر، وقد أتاحت المخترعات اليوم ذلك، فإن كان البلد «سجنًا كبيرًا» توصل أمام هذه المؤثرات الإسلامية الخارجية أبوابه: قام من ذلك دليل على وجوب مضاعفة المؤثرات القيادية المحلية، وليس العكس، كما ذهب إليه وهم الزعم بتجريد العملية التبشيرية الفردية من أبعادها الجماعية ومواردها القيادية، وهو الوهم الذى سيطر على قيادة من القيادات أكثر من ثلاثين سنة حصل فيها تجميد التنظيم وتعليق التخطيط والتنفيذ وتبكيّت «الفرد المقصوص الجناح» بعدما وهن عن خفقات يطالبه بها إعنات تعجيزى يتجاهل ظواهر الحياة، وكل التسويغ عند الاحتجاج يستند إلى منطق تجبّب محنة، دون النظر إلى أن هذا التجنب يؤدى إلى تفويت استنبات جيل جديد، ويؤدى إلى ذبول القديم.

هذا ما لقّنتنا إياه التجربة الميدانية والنزول إلى المستويات الدنيا في أكثر من قطر مع اختلاف الساحات الجزئية، مما تركنا نجزم بأن الأداء القيادى هو الشرارة القادحة لزناد

العمل الإسلامى العريض، فإذا افتقدنا الصاعق: دام السكون، مهما كان المخزون قابلاً للانفجار أو الاشتعال، وهذه حقيقة قَدَرِيَّة وسُنَّة كونيَّة، ليس من الصواب تجاهلها، وأولى إسالتها بترتيب وتقنين وسلسلة صِامات آمنة ومسالك ومداخل، في عملية توزيع تسيطر عليها رقابة ومنظومة قيم وأوزان تجعل لكل شىء قَدَراً، وهو ما يعيدنا إلى المعايير التى سلفت في صدر الكلام، وإلا فإن عاصفة ذات رعد وبرق قد تفجأ، فتسقط صاعقة ينفجر بها المخزون المكشوف القابل للانفجار حين يُترك عارياً، وهو في مثل العراق يكون في صورة هنود خضر يغزونه من جبال الجزائر مهلهلين، ويرمون سهامهم النارية فيكون اللهب، وهو الأمر الذى خفته وأرعبنى وأرهبنى وأقلقتنى توقعاته فأصدرت فتوى بكسر حاجز الفردية وأجزت الحَقَظَةَ أن يؤمنوا الطرق ويمنعوا قطع السبيل المسترسل المنساب الهادئ، فإن الوهم في الزعم أورد احتمالاً لفوضى ذات هَرَجٍ من حيث أراد صاحب رأى التعطيل منعها، لغياب هذا التحليل عنه حين افترض افتراضاً خيالياً سريعاً إمكان ما لا يمكن وتسليك ما لا قناة له، ونسى الطوفان إذا تراكم الماء بلا تصريف، ولم يعظه ذكر سيل العرم حين تلاوة القرآن، وكأنه يستروح أن المحنة حين ذاك لا تقع عليه وعلى مقلديه، وإنما على دعاة تجاوزوا وخرقوا الأمر، وكأنهم ليسوا ضحية خطأ التحليل، ولا تدرأ الغضبة عنهم شبهة التأويل.

تجريد عملية التجميع من روافدها القيادية يوقفها

وفي التطبيق العملى لظنون إمكان تجريد العمل الفردى عما يسنده من التأثير الجماعية قطع الامتداد الزمنى المستطيل إمكانية تصويبه، فإن الخطأ حين التجريب الأول قد لا يبدو سريعاً موضع المفارقة فيه، فيمنح المختلفون مدة انتظار طويلة يرجون بذلك فرصة إثبات الظنون عملياً أو قيام شواهد نافية وقرائن تلغى الظن، وقد حصل ذلك بما فيه الكفاية وزيادة، وطرأت ظواهر ضعف عمّت أكثر أفراد الجيل القديم، **أقلها:** وقف التطور في المستويات التربوية، فيحافظ المرء على ما اكتسبه وما يكاد. وأما النحت فكثير، والصدأ وذهاب البريق، وخمول الذهن عن تداول المعانى الدعوية، وتشتت القلوب مع الهمم الدنيوية، وضمور الأحاسيس الأخوية، حتى أن تعمّد الزيارة والتفقد لا يكون بتاتاً، ويكتفى باللقاء القَدَرى التصادفى، وهذا حال يقوم كبرهان على خطأ ظن تجريد وَرَدَ به التجريب، ويمكن أن تقع هذه

القصة في بلد آخر، وبذلك تعدى قولنا أن يستند إلى التحليل فقط، بل إلى مفاد الواقع المنظور جلياً، وتعدى أن يكون رواية إلى أن يكون تقرير درس دعوى على الدلالة.

* هذا يعود بنا بلا نكير إلى ما تقرر به بدائه العقول وما قررته ملاحظتنا الأولى من منح العمل القيادي أهمية محورية وأساسية في المسيرة الدعوية، ليس إسناد عملية التجميع الفردي إلا واحداً من وجوهها العديدة، وذلك أن الموقف القيادي الصلب هو الترجمة العملية أيضاً لثوابت الدعوة الفكرية، وعن القيادة ينبثق حسن التخطيط، وشخصها يحقق الامتلاء النفسى عند الأتباع، ويجلب الوحدة، ويكبت الفتنة، وحقائق الاقتداء تنبعث تلقائياً بلا إهابة وتكرار تذكير، وأياً رأى طارف مفيد سوف لا يبقى حيس صدر صاحبه، بل يجد له مسرباً عبر القيادة التى تعممه وتضيفه إلى رصيد الوعى، بل منها تبدأ التحولات الكبرى الإستراتيجية وتنبيهاً واكتشافاً وتوصيفاً وتخطيطاً وتنفيذاً، ومنها يكون القرار الحاسم إذا تردد المترددون، وببعد نظرها توائم بين الأداء الدعوى والحاجات الحضارية الشمولية، لما يحتاجه الأمر من إطلالة معرفية عريضة هى أخرى أن تكون الحائزة لها.

إنما يقودنا المحسن السباق المشاور المعاور الذاتى الاندفاع

من هنا نستطيع أن نغنى حالمين متمنين محلقين فى آفاق الخيال الرمزي لتتصور صفة القيادي فى الرهط القائد.

* فالقيادى، الذى هو أحد هؤلاء المائة أو المائتين فى كل قطر، الذين يمثلون قلب العمل النابض وروحه الوثابة: هو مسلم أول أوصاف هويته التى تبيح له أن يزعم شيئاً ويأمر بآخر: أن يكون له فى الحياة الواقعية السائرة أثر وبصمة مشاركة.

فما اكتشفه السلف أن المكانة القيادية نتيجة، لها مقدمة من عمل.

والناس أكيس من أن يبرزوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحسان

فالمنزلة القيادية لا تؤسسها رغبة مستشرف لها، إنما هى مجموعة إنجازات ترفع صاحبها.

* وقد تشفع وراثته أب، أو تلمذة لعالم، ولكنها تبقى مرجوحة وفى منزلة ثانية، والأصل العصامية والإبداع والتكوين الذاتى.

وهو مفهوم أحمد بن سهل للقضية، فعنده أن:

«الرجال ثلاثة: سابق، ولاحق، وماحق.

فالسابق: الذى سبق بفضلته.

واللاحق: الذى لحق بأبيه فى شرفه.

والمالحق: الذى محق شرف آبائه» (1).

فالأول فقط هو الذى يتعامل من موطن قوة، ويؤهل للصدارة، لأنه قد وضع ختمه الخاص على منتوجه. وأما الثانى فمكانته مجازية وتشفع له علاقته بذى شرف مضى. ونعوذ بالله من آخر لا يكتفى أن يكسل عن إضافة حتى يكون لما ورث هادما، وكذا النفس أحيانا إذا ارتكست، لا يرضيها إلا أن تبالغ.

* ويبدو لى عند التأمل أن اللاحق قد يرضى بسير الهوينى إذا كان المبدع المؤسس حيا، يستحى أن يتقدم بين يديه، أو حتى أن يقارن أو يساوى، لكنه إن رأى الساحة تشغل برحيل أبيه أو أستاذه - بادر للتعويض والحفاظ على وتيرة الأداء العالى، يحركه الشعور بالمسئولية، وارتفاع الحرج عنه إن احتل المقدمة، وهو معنى ابتكره أرسطو يوم مات الإسكندر فقال:

«أيها الملك: لقد حركتنا بسكونك!» (2).

وهذه إشارة فى أوج العلو، فيها ما هو أكثر من المقابلة البلاغية.

بل قول يكشف عن معادلة مهمة من معادلات حركة الحياة.

فوراثة القادة لا تكون بنحيب، فذلك شأن النساء، ولا برثاء، فذلك شأن الشعراء. ولك بنفضة وعزائم وحركة تتم ما بدءوه، وتنشر ما أسسوه.

وهكذا تتحرك الحياة، فهى فى جزء منها: مجموعة مبادرات واستدراكات، يتم بها اللاحق ما بدأه السابق، ثم يزيد.

* وبسبب هذه المتابعة استوى علم القيادة وتراكت أعرافها، فهو من علوم الخبرة التى

(1) المستطرف من كل فن مستظرف 1/ 205.

(2) المستظرف 2/ 377.

تنمو ويكتب كل جيل سطرًا في وثيقتها، ويضيف كل قائد خطأ في صورتها ولونًا وظلاً ونورا، وتعدو التجربة محورًا لتطوير مفادها وتوسيع آفاقها والتعريف بأخلاقتها.

فمن فصاحة العربى قوله لما سُئل: هل لك بالأمر؟

فقال:

إنى لأنقض منها المفتول

وأبـرم منها المحلول

وأجـلـها.... حتى تجـول

ثم أنظر فيها إلى ما.... تتـول

وخلاصة ما يفتخر به: أنه لا يلقي قوله على عواهنه، ولا يدلى برأى قبل تعتيقه وتقليبه، فهو يحلل ويركب ثم يرقب مستقرات الأمور بعد تحريكها ليجزم بالرأى النهائى، وتلك هى أرفع الممارسات القيادية عند قوم يعقلون، وبهذه الطريقة تتم صناعة القرار الجيد، وتنكشف البصائر السياسية.

*** لكن طرائق ذلك التشاور والمحاورة والمناظرة.**

وهو قولهم:

إن اللبيب إذا تفرّق أمره فتقّ الأمور مناظرًا ومشاورا

فيعود مجتمعا.

حتى كاد التفرد أن يكون جهلا، وجزموا بتصنيفه عجزا.

فقد تساءلوا: من العاجز؟

فقال: «المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه».

ذلك أن حصيلته لا تكون كتلة واحدة مجتمعة تقوده، بانتصابها أمامه، فتجذبه، وإنما أمره موزع، فهو مضطر أن يلتفت إلى الوراء ليضم أمره إلى بعضه من شتات، فيكون ذلك أول التأخر، بل أول الحين والوهن، كجفلة الظبى إذا التفت إلى ذئب يطادره: ترعبه، فيكون إبطاء، وارتجاف، وعما قريب يُفترس.

* وأكثر تبعاً من هذا المنفرد: مَنْ يختار صحبة الجاهل، فكأنه رضى أن يعاقب نفسه، كما قال أبو الأسود الدؤلى:

«إذا أردت أن تعذب عالماً، فاقرن به جاهلاً».

فإنه سيعكر عليه صفاء أوقاته، بالقول السخيف، والتصرف الأرعن، فيتبدد رأيه هو، إذ يبقى أكثر ساعاته آسفاً متوتراً، ويفقد صوابه الذاتى بالتعطيل.

* لكن المستبد بالصواب: عاقل يحاور عاقلاً، كالذى أنشدوا:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول

وصُنفت فى اللذات لأنها تؤدى إلى اكتشاف ما يليق من التصرف، فيكون ابتعاد عن خطأ، فيسعد بمكوته الطويل مع ما هو صالح ومفيد.

وقيل: رأى السديد أحمى من البطل الشديد.

بل هو لا يحوج له أصلاً، بما يلحق صاحبه من تملص من مواطن العطب، وتحاشى أسباب المشاكل، وليس يحتاج العلاج صحيح، ولا يسأل الدفاع مستقيم لم يجنح، وإنما هو المريب يضطر الناس أن يقوموه.

ولذلك يغلب الرزأى المفرد الكتبية الألفية الخشنة الطيشاء.

وقد قال أبو القاسم النهروندى:

وما ألف مطرود السنان مُسدّد يعارض يوم الروع رأياً مسدداً

وهذا مفهوم معرفى يشهد به التاريخ المدنى، فإن الحضارة إذا حرّرت الفكر، وأذكت الأدب، وأرست القانون، ومثلت الفن: فلنفسها مهدت، ولا استمرارها قدمت، وإنما هو دفاع معرفى يأتى أحمى من حركات سلاح لها ضريبة ثم سمعة سوء، فإن كان لابد من مواجهة: كان التفلت إلى جانب، فيكون الانقضاض المهيمن على قفا قوى متوغل خالف المفاد.

* ومن هنا كانت «محادثة الإخوان» هى الطريقة القديمة التى لا تبلى، والنمط العتيذ الذى لا يتطرق إليه ملل، فكل فن مصطنع يقذف فى القلب سأمًا، ويحتاج صاحبه أن يعود إلى

الفطرة والسليقة السلسة، إلا الحوار العقلي: تظل النفس عطشى له، لأنه غير مفتعل، فتكون به السلوة، ولن يزهد به سمير.

وقد قال معاوية رضي الله عنه:

«شربتُ الأشربة.... حتى رجعت إلى الماء.

ولبست الثياب..... حتى اخترت البياض.

فما بقي من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم».

***** وهذا تمييز وتخصيص يمنع اختلاط المعانى، فليس هو كل أخ تتوق إليه النفوس، وإنما هو الكريم فقط، وذلك شرط.

وفي القصص: أن معاوية كلّم الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال معاوية: بلغنى عنك الثقة!! فأجاب الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروها.

***** وهذا الاستدراك الحق من الأحنف في وصف خلق مهم من أخلاق الثقة: يفتح الباب لمستطرد أن يتوغل في اكتشاف بقيتها، التي تأسست في الابتداء وقبل كل شيء على نية جازمة بلزوم أوصاف التوثيق ومقصد فعل الخير وإضمار ما هو حسن، مما لا يحوج المتعامل مع الثقة إلى مطالبة وتنكير وموعظة، كالذى كان من الخليفة المتوكل ناصر السنة رحمته الله.

قال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى، قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعتة الأمور.

فقلت: يا أمير المؤمنين: بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة: لم يشكر النعمة.

وأنشدته:

لأشكرنّ لك معروفاً هممتَ به فإنّ همك بالمعروف معروف⁽¹⁾

فألهمم جزء من محركات الحياة، بل لها زخم قوى في هذا التحريك، ولولا نوايا المعروف وإلحاحها على الأحرار ودفعها لهم نحو دروب البذل لسكنت الحياة وخمدت ما بين نائل

(1) المستطرف 1/338.

متبطر ومغلوب حزين، إذ الحائز يرضى فيدخر، والآسف مكبوت هامد، ولكن نفصات الهمم تحمل الهُمام على استئناف وزيادة، أو شق حصار الألم، فيجذب الأمل.

وتلك هي ترجمة حكمة مَنْ قال:

أمس مثل، واليوم عمل، وغد... أمل.

* وهي بدورها معادلة من معادلات حركة الحياة لو تأملها الفاحص بروية، فكما أن الأمل يغري باستمرار المسيرة، فإن دروس الأمل تدفع وتضبط التقدم، إذ ليس أمل الفأث مجرد زمن انصرم وانتهى تأثيره، ولكنه مجموعة دروس تجريبية توجه وتهدي، وهو أيضًا مجموعة أساسيات لأخلاقيات أرساها الهُمام يحرص على أن ترتفع جذراتها وتستمر ويخشى توقفها، كالذي أشار إليه إبراهيم بن المهدي عم المأمون حين ثار عليه ثم عفا عنه، **فقال:**

«والله ما عفا عني المأمون تقريبًا إلى الله تعالى، ولا صلة لقربي، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي».

فهذا محرك من محركات الحياة آخر، يدعو صاحب السوق الرائج أن يوالى ترويجه، فالعفو صفة ثبتت للمأمون، وبها لهج الشعراء، وصارت له علامة، ويكون هو الخاسر لو قطع استمرارها، إذ يفقد الرصيد المتراكم، ثم الله أعلم من إبراهيم بدواخل الصدور: إن كان المأمون يتقرب ويتخلق معًا، أم يكتفى بصناعة العفو.

* لكن الأقرب في مشاهدات الحياة أنه يجمعها معًا، **كما قال الشاعر:**

إذا رام التخلُّق جاذبته خلاثقه إلى الطبع القديم

وليس في ظاهر ذلك شهادة للمعنى، لكن في الباطن يكمن إيهاء، فإنَّ التخلق المتكلف لا يصمد أمام الخلق الأصلي الذي جُبلت عليه نفس المتصنع، لأنه على الضد من ذلك، وجذره أعمق وأقوى رسوخًا، إنما يستعين المتخلقون بالتعبّد والتأله، فلربما يتيسر لهم ذلك بالإعانة والتوفيق.

ويؤيد هذا المعنى ما يقوله فقهاء النفس من أن الرادع ذاتي داخلي ينبع من أعماق الشخص، وليس ينفع حث خارجي.

وروى أن أبا العتاهية مرّ بـدكان ورّاق، وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرٌ

فقال: لمن هذا البيت؟

فقال: لأبي نؤاس، قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حُب الجمال وعشق الملاح.

فقال: وددت أنه لي بنصف شعري.

وهذا البيت يكشف عن حقيقة تربوية مهمة، فإن الأخلاق والتقوى لا تقتحم على صاحبها من خارج في عملية اختراق، سريعة إذا احتاج مشرفٌ على ذنب لها، وإنما هي نتاج بطيء يتسرب في القلب ذرة بعد ذرة في عملية تربوية طويلة يدفع المعلم أجزائها إلى تلميذه تبعاً، حتى إذا وصلت كثافتها إلى درجة ما: فإنه يؤذن لها آنذاك بالتأثير وردع صاحبها، وتقوم في قلبه كواعظ داخلية تحركه ضد المنكر وكل شيء أعوج بحساسية بالغة، وغاية التربية أن توصل المرء إلى هذه الحالة الرقابية الذاتية، ثم تدعه بعد ذلك يقود نفسه مميّزاً الصواب، وهذا ملحوظ لا بد لكل مربٍّ أن يدركه، فإن الموعوظ إذا بقى عالمة على واعظه كل دهره فيكاد الواعظ أن يكون لم يفعل شيئاً، إنها هي الدفعة وإعانة المبتدى، ثم المتوغل أعرف بنفسه.

ويتم هذه الملاحظات ما قد قيل من أن:

«جرعة النصيحة مّرة، لا يقبلها إلا أولو العزم».

فهى ليست مفروضة من الجميع، إنما ينتفع بها أناس هم فوق المستوى العادى، قد روضوا أنفسهم، وأعلوا همهم، فانبغى لهم تصميم وإصرار على تناوش الأمر الرفيع، يبذلون له الإذعان لما تكرهه نفوس المستكبرين.

إنما تكتمل طريقتنا إذا أحببنا عامة الناس وكسبنا ولائهم

* ويظل هذا التمرين على الإذعان يتحكم وسيطر على حركات النبلاء حتى يحولهم إلى حالة فهم مغزى النبل ومعناه وحدوده وطرائقه، ويتركهم على أهم خلق من فروع النبل، عنوانه: أن النبل يرعى من دونه، ويكفله، ويربيه، ويصوبه، ويمنحه فرصة للاقتباس والتشبه، ويظل يطرد هذا الأسلوب عنده حتى لا يبقى عنده حساسية تنفره من غافل يقارف

وفاسق سادر، بل يراهم ضحايا لتأثيرات سوء، ويجعل واجبه الانتشال، ويفهم أنه أمام معادلة أخرى من معادلات حركة الحياة، عنوانها هذه المرة: التأثير في الحياة عبر إضافة جهد الفسقة في ساعاتهم الخيرية إلى جهد الصالحين، عن طريق قيادة الطائفتين، بقول الولاء من قوم تعيينهم الطاعة.

ولست أرى ذلك إلا مذهب معروف الكرخي الزاهد، **فقد قال أحد أصحابه:**

«كان معروف قاعدًا يومًا على دجلة ببغداد، فمرَ بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي، ويشربون، **فقال له أصحابه:** أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع الله عليهم. فرفع يديه إلى السماء **وقال:**

إلهي وسيدى: كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة.

فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم!!

فقال: إذا فرّحهم في الآخرة: تاب عليهم في الدنيا» (1).

فأصل أمرنا الدعوى وشعورنا قائم على محبة الناس والعطف على العصاة والفساق ومحاولة انتشالهم مما هم فيه، لا الشتاتة بهم، ولا تركهم لشیطانهم.

ثم قد قادتنا هذه الملاحظة بالتجربة الدعوية إلى نظر تخطيطى دقيق، فهؤلاء أهل الطرب والمجون تكمن فيهم قابليات لومضات إيجابية، فلماذا أدعها تفلت منى ولا أحوزها بجميل تعاملى معهم وتوسعة صدرى لهم؟

* وأنا مازلت ألحظ في أوساط الدعاة توترًا حادًا من مناظر اللهو والغناء والسفور والاختلاط، واهتمامًا مضاعفا، إذ الأمر أبسط وأهون، فبدلاً من التوتر واستهلاك النفس أسفاً: يمكن اتخاذ نظرية الولاء أصلاً لحل العضلة، وتحصيل خير هؤلاء بالحسنى، وتوظيف شظايا خيرهم ضمن خطة الحل الإسلامى، فإنه سيوجد حلاً تلقائياً لمشكلتهم ودواءً من أزهار أرضهم نفسها، ويكفى الله المؤمنين التوتر والقتال ببديل من العلاقة السلمية الواقعية المستثمرة لإحسان لا يخلو منه طروب، وبإعانة من أصواتهم وأموالهم وجهودهم أحقق تبديلاً

في مسيرة يوفر جواً يصلحهم هم أنفسهم قبل غيرهم ويوفر لهم محيطاً نظيفاً يتناشون فيه التوبة من قريب.

لكن كم داعية يُدرك هذه الفذلكة التخطيطية ويكبح شهوة نفسه في التعامل الغليظ مع الفساق؟

ونحن نزع الجماعية، ولكن ما تزال فينا مفاهيم الفردين!

ونزعم التخطيط، ثم نهدر طاقة في المجتمع لعلها ضعف طاقتنا....!

إن هذه الرحمة إذا قصرها الأدب الزهدى على طبيعة أخلاقية فحسب، فإن فقه الدعوة يعديها إلى أبعد من ذلك، ويجعلها قاعدة تخطيطية تمنح العمل الإسلامى تفوقاً إستراتيجياً في الصراع، وليس من ثمن لها غير تعويد الدعاة أنفسهم كظم الغيظ والعفو عن الناس وبذل الحب للمسيء كبذله للمحسن. وسبب هذه القابلية على تحويل الطبيعة الأخلاقية إلى حقائق تخطيطية يكمن في الصنعة القيادية التي حبانها الله بها، واستطاعتنا إدارة جانب من الحياة بها، وشدّ شطر المجتمع إلينا واقتفائهم لأنماطنا وأعمالنا، ودفعهم إلى عمل الخير وتحقيق المصالح الإسلامية عن طريق الاقتداء بنا، والتقليد لنا، والمحاكاة، عبر الفن التربوى الإيماني الذي نمهر فيه، حتى لو كان يلفهم فسوق.

* ووقفة تأملية أمام مشهد من مشاهد الحياة تكشف لنا بالتحليل شيئاً من هذه المعانى، وأن الحياة صراع قادة وأتباع لهم مع قادة وأتباع.

قال عبد الملك بن عمير فيما روى عنه الثوري:

«رأيت رأس الحسين عليه السلام بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة.

ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار.

ثم رأيت رأس المختار بين يدي عبد الملك.

قال سفيان: فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟

قال: اثنتا عشرة سنة» (1).

فتعال وحلل: يتضح لك أن اللاحق استدرك وجمع أتباعاً فزاحم وتمكن وأزاح. فهذا المشهد الحيوى ملئ بالحركة، وينطق بما لم يقله هذا المراقب من صنعة التنافس المبنية على الصنعة القيادية التربوية.

صاحب النقص فى التحليل سترهبه الأقدار الربانية التى جعلت التحولات تترى سريعة فى هذا المشهد، وأبدته مفعماً بتدحرج الرؤوس، كأنه فيلم سينمائى لألفريد هيتشكوك، فلربما يهاب ويظن أنا ندعوه ليعلو ليتدحرج رأسه، وليس كذلك الأمر، بل هناك مَنْ يسيطر ويستمر له الأمر دهرًا طويلا، وإنما جىء بالمشهد لازدحامه بالدلائل، وليس هو النمط الغالب، ولئن نقصت أصحاب تلك الممارسة فنون تربوية وتنظيمية وتخطيطية يديمون بها تفوقهم، فسهلت إزحتهم، فإن للمحتاط النبه الحازم أن يحمى أمره بهذه الفنون، ونعيش اليوم زمن نكرات أداموا بالاحتياط أزمانهم عشرات السنين، وهم على باطل، وصاحب الحق أحرى أن يطيل أيامه باحتياط مثله.

* والذى يؤكد نفاذ هذه الصنعة القيادية التى تسوق الناس إلى مثل ديدن القائد: أربعة مشاهد حيوية أخرى من مشاهد الخير والشر، يعرفها الكثير ولا يتفطن لمغزاها ومعناها وفقهاها إلا القليل.

«روى أصحاب التاريخ فى كتبهم قالوا:

* كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا: مَنْ قُتل البارحة، وَمَنْ صُلب ومن جُلد، ومن قطع، وما أشبه ذلك.

* وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع، وشق الأنهار وغرس الأشجار.

* ولما ولى سليمان بن عبد الملك، وكان صاحب طعام ونكاح: كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة، ويتغالون فى المناكح والسرارى، ويعمرون مجالسهم بذلك.

* ولما ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كل ليلة، وكم يحفظ فلان، وكم يختم، وكم يصوم من الشهر» (1).

وبإمكان الجهد الدعوى إحياء المشهدين الثانى والرابع معاً، إذ باجتماعهما تنتظم الحياة كأجل ما تكون، ويكون عمران بقيادة الإيمان.

إن جميع هذه المشاهد إنما هى استجابات فى اللاشعور من السواد الأعظم المفطور على تقليد المسموع والمنظور، يتابعون بها أنماط القادة، ولئن ينحت افتقاد السلطة من المكنة التأثيرية القيادية الدعوية، فإن تنوع الفن التخطيطى وتكامل الأداء الفكرى الوعظى الإعلامى المؤسسى بإمكانها الجبر والتعويض والاستدراك وتوفير نصف هذه المكنة المبتغاة، والنصف يعتبر واحداً كاملاً فى القياس الشرعى النص الجهادى، ثم الواحد يكون أكثر فى القياس الإيمانى التباركى، فيغدو الحساب التنافسى وارداً جداً بذلك، ويصح ترشيح النفس.

لأهل النقص من عامة الناس وظائف خطئية نحتاجها

والمستقبل لأصحابه، يمشى مع من يبادر إلى إمساك زمامه.

أما المتردد المستقل لعدد إخوانه، المستصغر لحجم رهطه، إذا هاب وتخوف ورأى فى هذا الحث تجاوزاً لمقاد الحساب والأرقام، بما له من اقتباس جامد من علوم الإدارة الحديثة بلا وعى ونظرات نسبية واستدراكات إيمانية: فإنما نرد عليه برد إيمانى حُر ندعوه به إلى أن يتجاوز الشكليات الإحصائية إلى رؤية فلسفة الرياضيات والمنطق الجبرى، ليدرك معادلات حركات الحياة التى أدركها قيصر وكسرى وفهمها جيل المسلمين الأول، ثم عُسرت على داعية مستعجل هام غراماً بالحق والإيمان، فاستبد به التسامى العاطفى فتركه بمعزل عن المفاد العقلى، ومنطق استجلاب النصر منه قريب يكمن فى معادلة «تحصيل الولاء» مادامت بؤرة أهل الطاعة قد استحكمت وتركزت.

* فمن خبر الحكماء أن رجلاً قال لكسرى: ليس فى الناس كلهم خير.

قال كسرى: هذا صحيح.

فقال الرجل: ولا بد منهم!

قال كسرى: صدقت.

فقال الرجل: فألبسهم على قدر ذلك...!!⁽¹⁾.

(1) البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدي 115/7.

وهذا القول الصحيح البسيط إنما هو نظرية كاملة للحكم، وجماع قواعد السياسة الناجحة، ومعادلة مهمة من معادلات حركة الحياة.

ففى الناس أصحاب نقص متعدد الوجوه، بل أسافل وسخفاء، لكن سلسلة المنافع لا تكتمل بدونهم، بل تقوم بهم المصالح الدنيوية والدينية، ولذلك يكون واجب الرؤساء أن يتعاملوا معهم على قدر قيمتهم، بتمكين الشجاع، وتقديم الكريم، وتفرغ العالم، ثم ترك العامة يسدون الثغرات، يتوزعون على المهن والصناعات والفنون، لتكتمل الحياة. وكما راعى أكثر الملوك والخلفاء ذلك فى القديم: تراعى النظم الحديثة هذه السياسة المعتمدة على تلك الحقيقة، فتركت الناس واختياراتهم، وأذنوا لهم بتأسيس نقاباتهم ونواديهم وجمعياتهم ومدارسهم، حتى حصل إسراف فى ذلك عبر تقنين حماية السوء وردىء التصرف.

***** والعمل الدعوى الناجح الذى يبغي دوران دولاب العمل الإسلامى إنما ينطق من نفس هذه الرؤية الفطرية والتعليقات الفلسفية، وينبغى أن ندرك أن ليس فى كل الدعاة مقدرة وافرة، وإنما هم درجات، ولكن لابد منهم حتى الضعيف، فتلبسهم الخطة على قدر ما فيهم، بتنويع طرق العمل والبذل الدعوى، وتكثير اللجان والجمعيات والنوادي والمؤسسات والمثابات والمنطلقات، لتوافق كل هوى فى أفراد الجماعة ومناصريها، وعن طريق الاختيار نؤسس شغل خير لكل أحد، وتلك صفة بهية فى التربية المنهجية يجدر بنا أن نعرفها.

***** ثم تكتمل هذه الطريقة فى السيطرة على الحياة بأن نقرب من العامة الذين لا يلىق أن تحويهم صفوف الدعاة، فنجمع جزئيات الخير الصغيرة المتوزعة فيهم على طريقة تركيب الشظايا تلك، مهما كانوا فُساقا فى القياس الشرعى إذا لم يكونوا أهل دناءة وإسفاف، ومهما كانوا أصحاب نقص فطرى وقلة ذكاء وضعف فى القدرات، فإنهم لم يغلثوا على عى وعجز يهبط بهم إلى درجة الصفر فى العطاء والنفع والمقدرة، ولذلك نطلب ولاءهم فقط على وفق نظرية صناعة الحياة، ونقطف منهم ثمرات ليست هى من الصنف الأول المخصص للتصدير، وإنما من الصنف الثانى والثالث المخصص للاستهلاك المحلى فقط، وإنما هى ثمرات يانعة أيضًا بإذن الله، وفيها لذة ورواء وطب وشفاء، وكما أدار كسرى ثم جهمرة قادة الدول دولاب الحياة المدنية بالناقضين حين تمّ التعامل مع الناس حسب مقاديرهم، كل

واحد في منزلته، فإن الخطة الدعوية تدير دولاب العمل الدعوى والتأثير الإسلامى بهم، وتجعل السيطرة عليهم وتحصيل الولاء منهم وتسييره في الطريق الصحيح والتحكم به رقمًا في معادلة السيطرة الإسلامية على الحياة.

*** وهذه الملاحظة الحيوية لاحظها على بن أبى طالب عليه السلام فقال:**

«الغوغاء إذا اجتمعوا: ضروا، وإذا افترقوا نفعوا.

فقال: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟

قال: يرجع أهل المهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه.

وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق» (1).

وخططنا لا تسمح للغوغاء أن يجتمعوا، ليقلق على، وإنما هي تجمع ما يحسنون.

قال الجاحظ يومًا لكهل فاضل قد ابيض رأسه: لقد عجّل عليك الشيب! فقال: وكيف لا يعجل على وأنا محتاج إلى من لو نفذ فيه حكمى لسرحته مع النعاج، أو لفظته مع الدجاج؟ (2).

فهذه ظاهرة حيوية أيضًا: أن هؤلاء العامة والغوغاء فيهم أصحاب مال، وأصحاب مراكز وسطوة، فيحتاجهم مثل هذا النبيل المسكين الذى لقننا سبب بياض رؤوسنا وكنا عن ذلك غافلين، لكنه نسى إذ هو ييث لوعته أن النعاج والأبقار تمنح حليبًا، ومن تجمع كتوس من هذا الحليب قامت شركة نستلة العابرة للقارات وحصل لها عنقوان وأثر سياسى، ونسى أن عمداء في الجيوش يقفون في الطوابير ساعات ليأتى دورهم لاستلام طبقة من بياض هذا الدجاج في بلاد يشاء المستبد أن يذل الناس ويلهى خصومه بالحاجات المعاشية..!

*** ومرة أخرى يتوهم المستعجلون أن هذه القابلية في التحرك بالعوام والمستضعفين يستوى فيها الحاكم الظالم والدعاة، بل يظنون أنه أقدر وأمكن، لأنه في مكان السلطة.**

(1) المستطرف 1/ 232.

(2) البصائر والذخائر 4/ 70.

وهذا قياس مع الفارق، إذ نحن الأقدر بحمد الله، لأن اندفاعنا ذاتي، وتجذبنا منازل الجنان.

ففى القصص الرمزية: أن كلبًا عدا خلف غزال، فقال الغزال: إنك لا تلحقين. قال: لم؟ قال: لأننى أعدو لنفسى، وأنت تعدو لصاحبك!

ففى كل بلد كتب الله عليه المحنة هناك زبانية وجلاوزة ومن يعدو خلف الملائكة، لكنهم لا يستطيعون غير تمزيق أطراف أرديتها، وتبقى مخلقة بأجنحتها، لأنها مستأجرة لا تعدو قدرها ومنزلتها الواطئة، ولا تحركها ذاتية، بل تبعية يأنف منها الأصيل، ويتعفف عنها الشريف.

العمل الجماعى يتيح تراكم تأثيرات الأجيال

بل أبعد من هذا: أن ظاهرة الأجيال القيادية تعمل لصالحنا، فيتراكم الخير عندنا جيلا بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، وفي دورة الحياة الواحدة التى تجمع الشيخ والكهل والشاب فى آن واحد: يتكامل أداء الجمهرة كلها، وتظل كلمات وإنجازات وسير الذين ماتوا تؤثر فى الأحياء وإلى أجيال عديدة، وما زلنا فى الزمن المتأخر تضىء لنا بطولات وعلوم وحكمة السلف، فتجتمع من كل ذلك ذخيرة قيادية عظيمة الكتلة ترجع الميزان لصالحنا، إذ المستأجر الحى تائه فى ظلام ظلم سيده، والخاسر الميت مطوى الذكر منسى.

وهذا الجانب من نظرية الأجيال القيادية قد اكتشفه أحد نبلاء السلف **فقال:**

«معادن البهاء لا يقطع بين متصلها تفاوت الأعمار، ولا يُعفى آثارها بلى الأبدان»⁽¹⁾.

وما كنت أدري انتباه الأولين لها حين دونتها فى المسار، فالعلم والوعى والأخلاق، التى يجمعها اصطلاح «معادن البهاء» إنما هى سَنَد متصل تمثله سلسلة أهل الخير على اختلاف أعمارهم، الشاب منهم يكمل الكهل ثم الشيخ، بل حتى الذى يمضى إلى جوار ربه إنما هو غائب الجسد حاضر بسيرته ومفاد تجربته ونظراته النقدية ووصاياه الوعظية واختياراته الفقهية، وتتكون مدرسة لها طبعاتها الحيوية وإن اختلفت أسنان ممثلها وغابت أشخاص من

سلف من مؤسسيها وموسعيها ومروجيها وناقليها، وتجتمع من أداء الأجيال المتعاقبة كتلة تأثيرية لها وقعها المعنوي وحسمها الفاصل، أتاح بروزها العمل الجماعي المستمر الذي يدفع سيداً إلى الساحة كلما مضى سيد، وتلك منحة لا يعرفها فردى، وهو عن إدراكها بعيد.

مداد أسود.. وخضاب أحمر.. يرويان وردتنا البيضاء

لكننا في ذلك لسنا قدرية نعول على البهاء الذي يهبه الله لجماعة المؤمنين ثم ننزوى جانباً، وإنما ندرك الأسباب والوسائل والأساليب، وأن منحه الوعي والبصيرة والحكمة التي هي ترجمة البهاء إنما تخدم العامل لا القاعد.

* ونذكر أن أول ذلك: الخطو في درب العلم، وقد قيل: «مَنْ خَدَمَ المحابر: خدمته المنابر» أى أنه درب أوله حبر وأقلام وتسطير أوراق، لكن آخره بياض واستواء وسيطرة ولهج تصدع به المنابر.

* ثم ندرك أن العلم البارد كاسد، حتى نساء المؤمنين يدركن ذلك، فتطفق إحداهن تحرض على جهاد يحمى العلم ويثبته في أرض الواقع، وتشر أن عما قريب يكون «قد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق» «ألا وإن خضاب النساء الحنّاء، وخضاب الرجال الدماء».

لكنه الجهاد الواعي، عبر نمط الأداء الحضارى، لا الارتجالى المرسل الذى لا يضبطه تخطيط وتدرج وهدف، وإنما هو مأسور إلى قياسات الواقع والظرف والمرحلة.

وردتنا البيضاء فى الوعاء الأصفر

ولكى تكون الخطوات الجهادية واعية: يلزم أن يخدمها مال وافر يفى بأثمان الأداء الحضارى الغالى، وكل تقديم مكشوف لا تسنده خزانة عامرة يصيبه التعثر، ويكره التأخر، والأعمال فى المجتمعات المعقدة المشحونة بالتنافس لا تحتل ذلك، بل تريد موافاة فى الموعد المضبوط، واستعدادا يسبق الفرصة وينتظرها، والوصول المتأخر صورة من صور الغياب، ومرارة طعم هذه الحقيقة لا تبدل هذا الوصف الصحيح.

* والأمر فى الأداء الدعوى فى هذا المجال يماثل الأمر فى أداء الدولة، فمن المعادلات فى

حركة الحياة ما اكتشفه جعفر بن يحيى البرمكي منذ القديم في ارتباط السياسة والوجود السلطاني بالتكامل المدني والمال، ثم ارتباط المال بالعدل، وهو قوله:

«الخراج عماد الملوك، وما استعزوا بمثل العدل، وما استندروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد - تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور»، «وإذا ضعف المزارعون: عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها، فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان»⁽¹⁾.

وهذا من رفيع الكلام، ويشكل نظرية في الفقه السياسى يلزم أن يستعيرها الفقه الدعوى، فجنود الدعوة إنما يحركهم المال كما يلهب عواطفهم الإيمان ويؤكد عزائمهم الفكر، وهذا المثلث كامل، وإذا رفعت منه ضلعًا يصير الباقي مفتوحًا مكشوفًا لا يستوعب شيئًا ولا يحوى رصيدًا ولا يؤوى أهلًا.

* وقد قيل:

إنما قوة الظهور النقودُ وبها يكمل الفتى ويسودُ
كم كريم أزرى به الدهر يوما ولئيم تسعى إليه الوفودُ

* وقيل:

فـقوة العين بإنسانها وقوة الإنسان بالعين

والعين الثانية هنا: الذهب.

فهذا حديث معادلات حيوية، وما هو بحديث عواطف.

إنها معادلة تتحدث عن قوة الظهور، وقوة الإنسان.

وهل نمط الأداء الدعوى غير قوة الظهور وقوة الداعية؟

نعم، لسنا أهل تفسير أحادى، ولا نغفل عن آثار الإيمان ولمعات الفكر، ولكن لا نغفل أيضًا عن لمعات الذهب!

(1) المستطرف 1/ 168.

والسبب: أنك تحتاج المؤسسات، والتفرغ، والدعاية، والكفالة، والشراء، ومفتاح كل ذلك: الثراء.

والسبب فوق ذلك أيضًا: أنك مضطر لأن تخاطب الناس على مقدار عقولهم، وبلغتهم التي يفهمونها، في الأول، لينصتوا لك، لتبدل موازينهم ولغتهم في الثاني، كما أوصى بعض الحكماء ولده فقال:

«يأبني، عليك بطلب العلم وجمع المال، فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال».

* وأعراف هؤلاء الناس وموازينهم عجيبة غريبة، فقد قيل: إنه ما من خلّة هي للغنى مدح إلا وهى فى لغتهم واعتبارهم للفقير عيب.

فإن كان شجاعاً.... سُمى أهوجاً.

وإن كان حليماً.... سُمى ضعيفاً.

وإن كان وقوراً..... سُمى بليداً.

وإن كان لسنّاً.... سُمى مهذاراً.

وهذا وضع مأساوى مرهق، لطالما حاصر الدعاة، ولا يكتمل الأداء التربوى المنهجى ما لم يتمم ويردّف بهال نرفع به الداعية المتربى عن حد الفقر ونجعله طليقاً إذا أراد التجول الإيجابى، ليصح نطقه وتفصح لغته من بعد عُجْمة الحرمان ومكوث طويل فى قفص الاتهام، وما أظلم الغوغائى حين يكون قاضياً.

إن تحرير الداعية من رهق الحاجة والقروض: إنها هو جزء من منهجية التربية الدعوية، من أجل أن يصدق ويغرّد، فإنه مكبوت، وما هو بأخرس.

* وكان فى القديم شاعر، كأنه داعية، أذهلته إيهاءات الدائنين، وإذ بلسانه يصبح معقولاً، ويقول:

لقد كان القريض سمير قلبى فألهتنى القروض عن القريض

فقريض الإيمان ومتن الفكر: سمير قلب كل داعية.

وحكاية واقع العالم الإسلامى وتحليل الأحداث صنعة كل داعية.
ورواية التجريب وفقه الدعوة والمفاد الحضارى أناشيد كل داعية.
لكن: كم من داعية أسكتته الفقر وأهتته رهبة القروض؟
فذلك هو الذى جعل تحرير الداعية من رهق طلب المال واجباً موضوعاً على عاتق
منهجية التربية الدعوية لا يسعها التنصل منه.
لأن الإنسان فى ذروة الشرف.
أشرف ما فيه: العقل.

نقطة فى الخيال ... ملحمة فى المال

وبذلك تكون معادلة تحرير العقل أهم معادلة فى حركة الحياة.
والمفروض أن تدرك منهجية التربية الدعوية ذلك، بجلاء، إذ إن هذا التحرير هو الخطوة
الأولى فى الإيمان، لمكانة الفطرة الغالبة، وكما يستعبد الطغاة العقول فيحرمونها من الإيمان:
يستعبد الفقر العقل المؤمن، فيشتته، وقد كاد الفقر يكون كفراً بمثل هذا التشيت.
إن الخالق قد حبا الإنسان بعقل عجيب، له مقدرة فائقة على التخيل، وإنزال ذلك على
الواقع، ومقدرة على القياس، والترتيب المنطقى، والتعبير الفنى، والاحتكام إلى المعايير،
والتجانس مع سلوكيات مخلوقات الله الأخرى.
* ولكى ندرك أهمية العقل وطاقاته الجبارة: يلزم أن نراه فى الحالات المطلقة من عمله
ونشاطه، قبل تجمله بالإيمان، لأننا إذا أحسنا حقاً ببراعة أدائه المطلق: سهل إدراك جمال
أدائه الإيماني عندما يؤمن ويتخلص من المعكرات.

وفى هذا السياق حقائق مبكرة، منذ الزمن الحضارى القديم، وقد أعجبتنى قطعة من
العمل العقلى المطلق فى الفلسفة الرياضية والمنطق الهندسى نقلها أبو حيان التوحيدي عن
قسطن بن لوقا عن علماء اليونان فيما يبدو، وهذه المقطوعة التأملية ترينا بوضوح عميق قابلية
التأمل والخيال التى أودعها الله فى العقل، ولذلك هى تخرضنا على أن نصونه ونحرره ونمهد
السبل أمام سياحاته، وأن نجعل ذلك أول منهجية التربية الدعوية، إذ فى ذلك تمهيد للإيمان

أن يدخل العقل، ثم تدخله اللمسة العاطفية القلب، ومن يجعل ذلك أول المنهجية واعيا: يجعله آخر المنهجية أيضًا، بمثل ذاك الوعي.

* يقول قسطا بن لوقا:

«الخط هو مقدار ذو نعت واحد، وهو الطول، بلا عرض ولا عمق، وهو يدرك على الانفراد بالعقل والوهم، لا بالحسّ. وأما وجوده بالحس: فإنه في البسيط⁽¹⁾، إذ هو نهايته، فإن البسيط إذا أُلقي منه عَرَضه: بقى طوله فقط، وذلك هو الخط. ونهاية الخط نقطتان: فالنقطة هي شيء لا بُد له، أعنى لا طول ولا عرض ولا عمق، وهي موجودة على الانفراد بالعقل والوهم لا بالحسّ، وأما وجودها بالحس فهو في الخط»⁽²⁾.

* ولو تأملت ملياً: لأدركت أن هذا الوصف الواضح الذى تظنه سهلاً إنما هو إعجاز إنسانى رفيع المستوى ينبى عن ذكاء ومُكنة تصورية قوية، بمثلها تتحرك الحياة، وتنفجر الطاقات الكامنة، ولا تستطيع أبداً أن تجرد هذا المقطع فى التأمل العقلى العالى العتيق من ارتباطه بسياجات آينشتاين الذهنية فى تمثّل النسبية، أو تجربة عملية لها أجريت فى استقبال ضوء كوني بعيد أثبتت انحناء مسار الضوء، بل هو جذر من جذور فيزياء الكم، وللمنطق الذى فيه أثر فى صياغة عقل ماكس بلانك. ثم لا نستطيع أن نفصله عما أودع المهندسون فى أعماق الكمبيوتر التحتية من قابليات تجسيمية وأقيسة تبادلية التأثير، فإن هذه النهايات تستند كلياً إلى جذر تلك البدايات فى تخيل الخط والنقطة، ولولا ذاك ما كان هذا، ولولا إدراك وضع البسيط ما كان إدراك المجسم، والعلم كتلة نامية، وشجرة أصلها بذرة، ثم يأتى دارون يستعصى عليه أن يفهم دلالة هذا الإعجاز، وعبقريّة العقل الإنسانى، فاستغلق عليه فهم استثناء آدم، وذهل عن إدراك أبعاد معانى الفلسفة الرياضية هذه، وعصفها العاصف إذا عصفت، فألزمت بالمنطق من فى عرصة الحياة أن يقدم لها الولاء، فباتت تسيطر على المكان والزمان ومن فيها وما فيها مما يدرك ويرى ويحسّ، كله جميعاً، بلا استثناء، وهو الموفق فقط يفقه قيمة العقل الإنسانى الذى حبانا الله به دون سائر المخلوقات، وهو المؤمن فقط ينتبه إلى أن حركة الحياة أساسها عقل ونفس.

(1) يعنى: الهندسة المستوية لا المجسمة.

(2) البصائر والذخائر 93/9.

* أما لماذا كفر ابن لوقا هذا، ولماذا كفر آينشتاين؟ فذلك لخبر آخر من أخبار الإيمان، والإيمان ليس أحادي التفسير، بل تحكمه حقائق شتى، مثل الشهوة والشبهة، وإغراء الشيطان، وما يعاكس ذلك من التوفيق الرباني، وأسرار حكمة القدر. وليس هذا مجال شرحها، إنما أردنا التذكير بعنفوان الأداء العقلي، لنذكر تأثيراته إذا ازدان بالإيمان، لنحرص على رعايته وجعله شغل المنهجية التربوية إذا أرادت التجانس مع حقائق الكون والخلق.

* ومن يتم فهم هذه المعادلات الحيوية في وصف النقطة والخيال العلمي، وأثر المال، ومعادن البهاء المترابطة، وخضاب الرجال، واحتياج الخطط التفوقية للعامة السفلية، ومنطق الغزال، وختمات عمر، ومصانع الوليد، وتبدلات في قصر الكوفة، والوعى الكرخي، وذاتية الوازع النفسى، وسوق الأخلاق، وهمم المعروف، وجذبات الأمل، ومحادثة الإخوان، والسكون المحرّك، واستدراك اللاحق، والشرارة القيادية القادحة، وجمع نفحات الله التى تنعش كل فرد من الناس في أوقات متباينة، وضَمَّ أخلاق الناس المتفرقة المتوزعة فيهم إلى بعضها، وتراكم ألف سبب لتحويل السائب إلى داعية: فقد أذن له أن يفهم طرائق حركة الحياة والأصل الشرعى والجذر الفلسفى والمنبع الفيزياوى لمنهجية التربية الدعوية.



خاتمة

خاتمة

*** أما بعد ..** فأنا أعرف أن الخيال سهل، وأن التفكير المجاني لا حدود له، وقد أطلقت لنفسى العنان فأوجبت أشياء كثيرة وزعمت صورة مثالية لمنهجية التربية الدعوية، وما ذاك إلا لأننى لا أجد أحداً يطالبنى بتنفيذ ويحصى على ومحاسب، لكن اللجان التربوية مسكينة، فإنها مكلفة بإنزال هذه التمنيات العراض على الواقع، وتوجيه يوميات تحرك الدعاة وفق ما تقتضيه، وهذا هو الموطن الصعب، وهناك البطولة الحقيقية.

*** لكن إذا أنا برجال تربية شفيق:** أحب أن أسأل: أما كانت الخيالات والرؤى الحاملة هى مصدر التخطيط الناجح دائماً؟

إذن ... لا ترهّد بالذى أعرضه وأقترح، فلربما وجدت حلول معضلات التربية بين هذه الإشارات الطموحة.

ومن هنا أفهم أن الطريق العمل للاستفادة من هذا الحشد من الملاحظات والتحليلات أن يقرأ الداعية التربوى الكتاب ثانية متروياً، ويستخرج منه المطالب والاقتراحات والمفردات التربوية ويجعلها فى قائمة يقرنها بمماثلات يستخرجها من المسار وصناعة الحياة وأصول الإفتاء والاجتهاد ورسائل العين، ثم يلحق بذلك مقترحات أوردتها غيرى فى كتبهم، ويجعل من جميع ما هنالك مثل دستور للعمل التربوى فى صياغة تعييدية تخطيطية، ثم يدعو إخوانا له إلى مؤتمر لتقويم ذلك وتحديد مدى إمكانية الاستفادة مما ورد، فما يقر يرفع إلى مؤتمر ذى مستوى أعلى، حتى يصل مستوى أهل الاختيار والقرار، فيمرّر الصواب ويوصى به، ويكون استبعاد الخطأ وما فيه إرهاب. وأما ما يكون من عمل غير تربوى يؤدي إلى تأثير تربوى، مثل فكرة الصناعة، فإن تقريرها يكون أبعد من محيط التربويين، ولها أولياء يتولونها.

* ويقع بيتي على طريق عام موصل إلى مركز المدينة، لذلك أصبحت أشاهد يوميا منظر عشرات ألوف من الناس أو مائة ألف أو يزيدون يسعون من بيوتهم صباحًا إلى وظائفهم في دواوين الوزارات والشركات والمعامل، وعشرات ألوف أخرى من طلاب الجامعات، ثم أراهم ثانية كل مساء يروحون إلى بيوتهم تنقلهم الحافلات في ازدحام مثير للانتباه، وجزما أن هذا المنظر يتكرر في الشوارع الرئيسة الأخرى المؤدية إلى مركز المدينة.

فأقول: حقًا إن مهمة الدعوة صعبة، فكم من داعية عندنا بين هذا العدد المليونى؟ عددنا قليل، والناس كثير، ولذلك يجب على تخطيطنا أن يراعى هذه الحقيقة، فلا يتورط في استعجال، إذ يحتاج هؤلاء إلى تربية وفكر وموازن وأخلاق ليكونوا شعبًا صالحًا لدولة إسلامية نحلم بها، ولا يكفى أن تكون قيادات الدولة مسلمة وسواد الشعب الأعظم في تخلف عن إدراك مسؤوليته الإنسانية التكاملية مع الدولة، كما يحدث في السودان اليوم. بل حتى الجانب الأخلاقي يتراجع في لناس في كل الأقطار، بتأثير القنوات الفضائية والشعوب الأخرى النصرانية والوثنية، وأصبح الميزان المصلحي هو مذهب الناس.

وأمر كهذا يدفعنا إلى أن نطور خططنا ومفاهيمنا في العمل بما يناسب هذه الحقائق والظواهر، بحيث نجعل تحصيل ولاء الناس هو الركن الأكبر المعتمد في العمل الإسلامى، وليس تنظيمهم، بل نكتفى أن يكون التنظيم بؤرة مركزية عالية المستوى يتوسع حجمه بتدرج آمن وفق نظرية الشروط المشددة، ويكون مدى توسعه كافيًا لتعويض الفاقد بالموت والشيخوخة والانعزال، ثم كافيًا لرصد عناصر دعوية مشرفة على التوسع الذى يحصل في الولاء، أى كلما ازداد الولاء في الحجم: ألزمتنا أنفسنا بتنظيم دعاة جدد يتولون إدامة معنوية الموالين الجدد وتغذيتهم بالفكر وتجميلهم بالأخلاق، مع تنظيم آخرين ينتجون توسعًا آخر، في عملية متصاعدة، لكن هذه العملية المتصاعدة، الداخلية التنظيمية، والخارجية الولائية: تحتاج حلقات تدور حول المحور القيادي، وهذه الحلقات هى أهل الاختصاص العالى المستوى، من علماء الشرع والوعاظ والمفكرين والإعلاميين والأدباء والشعراء والمحللين

السياسيين والرموز الدعوية والصناعيين ورجال الأعمال ونبلاء العمل الخيري وأعضاء البرلمان ورؤساء المؤسسات الدعوية، رجالاً ونساءً، ولا مجال للتخطيط الدعوى إلا أن يقبل هذا التحدى الثقيل والمهمة الصعبة ليدوم الأمر في مجتمع معقد، والذي ألاحظه في منهجية التربية المعمول بها أنها تعتنى بالتربية الداخلية بشكل مكثف، ولم تتكيف لهذه النقلة التخطيطية في التوسع في طلب الولاء، ولذلك أرى تطوير منهجيتنا ينبغي أن يأخذ ذلك بنظر الاعتبار وأن نتوسع في التربية الخارجية الموجهة لجمهورنا، **والتي من وسائلها:** نشر الكتب الفكرية الدعوية والرسائل المبسطة، والمجلات الإسلامية، ونشر كتب العلوم الشرعية بطبعات شعبية، وعقد حلقات تدريس العلوس الشرعية، وإجادة مواقع الإنترنت، والشريط المسموع والمرئي والأقراص المدججة، والعمل الإعلامى بصورة عامة، ويحدث تقدم جيد في ذلك، ولكن بشكل مستقل، وكأن الأمر لا يعنى منهجيتنا التربوية، واللازم إجراء تنسيق لكل هذه الأعمال الفكرية والإعلامية وجعلها ضمن رقابة أجهزتنا التربوية، مع التركيز على إبراز رموز دعوية بعدد أكبر وإحلال تنسيق آخر بين كلامهم، لما له من تأثير تربوى، وربما تكون القناة الفضائية الإسلامية الثقافية هى المحور الرئيس الذى يمكن أن تدور حوله منهجية التربية الخارجية الموجهة للأنصار والموالين مثلما هى موجهة لتطوير الدعاة، ولست أفصل بين السياسة والثقافة، ولكن أمر القناة السياسية أشد، وحديثها ذو شجون.

***** لكن حرصنا على ولاء الناس لا يعنى أن نحرص على رضاهم وننزل إلى مستواهم، إنما نرفعهم لمستوانا ما استطعنا، وإلا فإن فيهم بطراً وجهلاً وتمرداً، ويغلب على العامل أن يطلب من الداعية أن يجاريه، وأن يقره على شهواته وتساهله، ولكننا أصحاب ثوابت ومبادئ، فلسنا نقول إلا الحق، ولا نطق إلا بما يرضى الرب، وبعض الجهلة من العامة على استعداد للملاحقة، وبقلة أدب يستفز.

وكان العامي قد جاء إلى الشيخ القُدورى رئيس فقهاء الأحناف ببغداد وصاحب المختصر

المشهور في الفقه، فدفع إليه ورقة فيها استفتاء، «فاتفق الجواب على خلاف غرض المستفتي، فقال له: يا شيخ، أتلقت ورقتي» ⁽¹⁾ فعوضه الشيخ ورقة من عنده.

فنحن نعمل في محيط ملغوم بالجهل، وليست هي السلاطين فقط تؤذينا، بل الناس أيضًا، وقد يتسلطن عليك جاهل في المسجد الذي تنطلق منه فيسومك العذاب ويتهم ويفجر لسانه ويهذر، فتضطر أن تقرأ سبع مرات ﴿وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم] ونطق عشرًا: سلامًا، سلامًا، سلامًا...

* ويبقى أمر تطوير منهجنا التربوي أبعد من الحصر والتدوين، وكل من له تجربة عملية تصح منه الإضافة، وهو مدعو أن يبدع ويضيف معنى أو ملاحظة نقدية.

وإنا وجدناك أيها الأخ الداعية ذكيا ألمعيا صاحب كياسة، والدليل على ذلك أنك فهمت حال الأمة الإسلامية وأدركت طريق الاستدراك عبر العمل الدعوي وذلك فضل من الله تعالى عليك ميزك به عن أهل العجز الذين تسيبوا فكسلوا وانحرفت اهتماماتهم إلى دنيويات مفضولة وجلسوا على سفوح تلال الغفلة، ولذلك ندعوك إلى أن تلبى مراد الله منك.

قد وهبك الذكاء بقدر، كما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس».

فأنت ذكي بقدر الله.

وأنت داعية بفضل الله.

والمفروض أن تستطرد مع الحكمة الربانية فتحرص على تسخير ذكائك لخدمة العلم الشرعي، أو لتحليلات تكشف عالم السياسة، أو لإضافة وصية تربوية تحتل مكانها ضمن المنهجية العامة.

(1) أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح/ 147.

كَيْسُكَ وَذَكَؤُكَ مَا اشْتَرَاهُ أَبُوكَ مِنَ السُّوقِ، إِنَّهَا هِيَ مَنْحَةٌ رَبَّانِيَّةٌ خَالِصَةٌ وَيَلِيقُ أَنْ تَشْكُرَهَا
كَشْكُرِكَ الرِّزْقَ وَالْدِينَارَ.

فَقُمْنَا بِفِكْرٍ، وَنَسْتَطِرِدْ فِي اصْطِيَادِ اللَّمَعَاتِ.

ثُمَّ اجْلِسْنَا فِي مَوْثَرِ سَوِيَعَاتٍ نَتَحَرَّى صِفَةَ مَنْهَجِيَّةِ التَّرْبِيَةِ الدَّعْوِيَّةِ.

وَادْعَ مَعِيَ رَبَّنَا الرَّحِيمَ أَنْ يَعْطِّرَ ذِكْرَ نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ بِعَطْرِ شَذَى عِبْقِ زَكِيِّ مَنْ صَلَاةٍ
وَتَسْلِيمِ.

